فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق

﴿ مصر — رمضان سنة ١٣٢٤ — أول الجمعة ١٩ اكتوبر (ايلول) سنة ١٩٠٦ ﴾

باب تفسير القرآن الحكيم

(مقتبس من الدروس التي يلقيها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

«فان قيل فأكثر السلف على ان الراسخين في العلم لا يعلمون التأويل وكذلك أكثر أهل السنة يروى هذا عن ابن مسعود وأبيّ بن كعب وابن عباس وعروة وقتادة وعمر بن عبد العزيز والفراء وأبي عبيد وثعلب وابن الانباري قال ابن الانباري في قراءة عبد الله ان تأويله الا عند الله والراسخون في العلم وفي قراءة أبيّ وابن عباس «ويقول الراسخون في العلم» قال وقد أنزل الله في كتابه أشياء فأستأثر بعلمها كقوله تعالى (قل إنما علمها عند الله) وقوله (وقرونا بين ذلك كثيراً) فأنزل المحكم ليؤمن به المؤمن فيسعد ويكفر به الكافر فيشقى قال ابن الانباري والذي يروي القول الآخر عن مجاهد هو ابن أبي نجيح ولا تصح روايته التفسير عن مجاهد فيقال قول القائل إن أكثر السلف على هذا قول بلا علم فانه لم يثبت عن أحد من الصحابة انه قال ان الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون وما ذكر من قراءة ابن مسعود وأبيّ بن كعب ليس لها اسناد يعرف حتى يحتج بها والمعروف عن

ابن مسعود أنه كان يقول مافي كتاب الله آية الا وأنا أعلم فيماذا أنزلت وقال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا اذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل وهذا أمر مشهور رواه الناس عامة أهل الحديث والتفسير وله اسناد معروف بخلاف ماذكر من قراءتهما وكذلك ابن عباس قد عرف عنه أنه كان يقول أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا له بعلم تأويل الكتاب فكيف لا يعلم التأويل مع أن قراءة عبد الله «إن تأويله الا عند الله» لا تناقض هذا القول فان نفس التأويل لا يأتي به الا الله كما قال تعالى (هل ينظرون الا تأويله) وقال (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وقد اشتهر عن عامة السلف أن الوعد والوعيد من المتشابه وتأويل ذلك هو مجيء الموعود به وذلك عند الله لا يأتي به الا هو وليس في القرآن أن علم تأويله الا عند الله كما قال في الساعة (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون» قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) وكذلك لما قال فرعون لموسى (فما بال القرون الاولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) فلو كانت قراءة ابن مسعود تنفي العلم عن الراسخين لكانت إن علم تأويله لا عند الله لم يقرأ إن تأويله الا عند الله فان هذا حق بلا نزاع

وأما القراءة الاخرى المروية عن أبي" وابن عباس فقد نقل عن ابن عباس ماينا قضه وأخص أصحابه بالتفسير مجاهد وعلى تفسير مجاهد يعتمد أكثر الأئمة كالثوري والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري قال الثوري اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به والشافعي في كتبه أكثر الذي ينقله عن ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد وكذلك البخاري في صحيحه يعتمد على هذا التفسير وقول القائل لا تصح رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد جوابه أن تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد

من أصح التفاسير بل ليس بأيدي أهل التفسير كتاب في التفسير أصح من تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد الا أن يكون نظيره في الصحة ثم معه ما يصدقه وهو قوله عرضت المصحف على ابن عباس أقفه عند كل آية وأسأله عنها وأيضاً فأُبيّ بن كعب رضي الله عنه قد عرف أنه كان يفسر ما تشابه من القرآن كما فسر قوله (فأرسلنا اليها روحنا) وفسر قوله (الله نور السموات والارض) وقوله (واذا أخذ ربك) ونقل ذلك معروف عنه بالإسناد أثبت من نقل هذه القراءة التي لا يعرف لها اسناد وقد كان يسئل عن المتشابه من معنى القرآن فيجيب عنه كما سأله عمر وسئل عن ليلة القدر. كذا)

وأما قوله: إن الله أنزل المجمل ليؤمن به المؤمن فيقال هذا حق لكن هل في الكتاب والسنة أو قول أحد من السلف أن الانبياء والملائكة والصحابة لا يفهمون ذلك الكلام المجمل أم العلماء متفقون على أن المجمل في القرآن يفهم معناه ويعرف ما فيه من الاجمال كما مثل به من وقت الساعة فقد علم المسلمون كلهم معنى الكلام الذي أخبر الله به من الساعة وأنها آتية لا محالة وأن الله انفرد بعلم وقتها فلم يطلع على ذلك أحد ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله السائل عن الساعة وهو في الظاهر أعرابي لا يعرف قال له متى الساعة قال «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» ولم يقل إن الكلام الذي نزل في ذكرها لا يفهمه أحد بل هذا خلاف إجماع المسلمين بل والعقلاء فان اخبار الله عن الساعة واشراطها كلام بين واضح يفهم معناه وكذلك قوله (وقروناً بين ذلك كثيراً) قد علم المراد بهذا الخطاب وأن الله خلق قروناً كثيرة لا يعلم عددهم الا الله كما قال (وما يعلم جنود ربك الا هو) فأي شيء من هذا مما يدل على أن ما أخبر الله به من أمر الايمان بالله واليوم الآخر لا يفهم معناه أحد لا من الملائكة والانبياء ولا الصحابة ولا غيرهم. وأما ماذكر عن عروة فعروة قد عرف من طريقه أنه كان لا يفسر عامة آي القرآن الا آيات قليلة رواها عن عائشة ومعلوم أنه اذا لم يعرف عروة التفسير لم يلزم أنه لا يعرفه غيره من الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة كابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن عباس وغيرهم

وأما القدمون الذين يقولون ان الراسخين لا يعلمون معنى المتشابه فهم

متناقضون في ذلك فان هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء في القرآن ويتوسعون في القول في ذلك حتى ما منهم أحد الا وقد قال في ذلك أقوالا لم يسبق اليها وهي خطأ وابن الانباري الذي بالغ في نصر ذلك القول هو من أكثر الناس كلاما في معاني الآي المتشابهات يذكر فيها من الاقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة وهو قصده بذلك الانكار على ابن قتيبة وليس هو أعلم بمعاني القرآن والحديث واتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه في ذلك وان كان ابن الانباري من أحفظ الناس للغة لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة وقد نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبي عبيد أشياء من تفسير غريب الحديث وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطئون أخرى فان كان المتشابه لا يعلم معناه الا الله فهم كلهم يجترون على الله يتكلمون في شيء لا سبيل الى معرفته وان كان ما يقوله من معاني المتشابه قد أصابوا فيه ولو في كلمة واحدة ظهر خطؤهم في قولهم ان المتشابه لا يعلم معناه الا الله ولا علمه أحد من المخلوقين فليختر من ينصر قولهم هذا أو هذا ومعلوم أنهم أصابوا في شيء كثير مما يفسرون به المتشابه وأخطؤا في بعض ذلك فيكون تفسيرهم لهذه الآية مما أخطأوا فيه العلم اليقيني فانهم أصابوا في كثير من تفسير المتشابه وكذلك ما نقل عن قتادة من أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه فكتابه في التفسير من أشهر الكتب ونقله ثابت عنه من رواية معمر عنه ورواية سعيد بن أبي عروبة عنه ولهذا كان المصنفون في التفسير عامتهم يذكرون قوله لصحة النقل ومع هذا يفسر القرآن كله محكمه ومتشابهه

والذي اقتضى شهرة القول عن أهل السنة بأن المتشابه لا يعلم تأويله الا الله ظهور التأويلات الباطلة من أهل البدع والجهمية والقدرية من المعتزلة وغيرهم فصار أولئك يتكلمون في تأويل القرآن برأيهم الفاسد. وهذا أصل معروف لاهل البدع أنهم يفسرون القرآن برأيهم العقلي وتأولهم اللغوي فتفاسير المعتزلة مملوءة بتأويل النصوص المثبتة للصفات والقدر على غير ما أراد الله ورسوله فانكار السلف والأئمة

لهذه التأويلات الفاسدة كما قال الامام أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله

فهذا الذي أنكره السلف والائمة من التأويل فجاء بعدهم قوم انتسبوا الى السنة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها وظنوا أن المتشابه لا يعلم معناه الا الله فظنوا أن معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى المرجوح فصاروا في موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه الا الله ثم يتناقضون في ذلك من وجوه (أحدها) أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر ويقررون المعنى الظاهر ويقولون مع هذا إن له تأويلا لا يعلمه الا الله والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر فكيف يكون له تأويل يخالف الظاهر وقد قرر معناه الظاهر وهذا مما أنكره عليهم مناظروهم حتى أنكر ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى (ومنها) أنا وجدنا هؤلاء كلهم لا يحتجون على شيء بنص يخالف قولهم لا في مسألة أصلية ولا فرعية الا تأولوا ذلك النص تأويلات متكلفة مستخرجة من جنس تحريف الكلم عن مواضعه من جنس تأويلات الجهمية والقدرية التي تخالفهم فأين هذا من قولهم لا يعلم معاني النصوص المتشابهة الا الله واعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله (والله لا يحب الفساد) (ولا يرضى لعباده الكفر) (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (لا تدركه الابصار) (انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) (واذ قال ربك للملائكة) ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد وان كان في بعضها حق فان كان ما تأولوه حقا دل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم وان كان باطلا فذلك أبعد لهم

وهذا أحمد بن حنبل امام أهل السنة الصابر في المحنة الذي قد صار للمسلمين معيارا يفرقون به بين أهل السنة والبدعة لما صنف كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله تكلم في معاني المتشابه الذي اتبعه الزائغون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله آية آية وبين معناها

وفسرها ليبين فساد تأويل الزائغين واحتج على أن الله يرى وأن القرآن غير مخلوق وان الله فوق العرش بالحجج العقلية والسمعية ورد ما احتج به النفاة من الحجج العقلية والسمعية وبين معاني الآيات التي سماها هو متشابهة وفسرها آية آية وكذلك لما ناظروه واحتجوا عليه بالنصوص جعل يفسرها آية آية وحديثا حديثا ويبين فسادما تأولها عليه الزائغون ويبين هو معناها ولم يقل أحد ان هذه الآيات والاحاديث لا يفهم معناها الا الله ولا قال أحد له ذلك بل الطوائف كلها مجتمعة على امكان معرفة معناها لكن يتنازعون في المراد كما يتنازعون في آيات الامر والنهي وكذلك تفسير المتشابه من الآيات والأحاديث التي يحتج بها الزائغون من الخوارج وغيرهم كقوله «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الشارب الخمر حين يشرب وهو مؤمن» وأمثال ذلك ويبطل قول المرجئة والجهمية وقول الخوارج والمعتزلة وكل هذه الطوائف تحتج بنصوص المتشابه على قولها ولم يقل أحد منهم لخصمه إن هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله يستدل به هو أو يستدل به عليه منازعه هذه آيات وأحاديث لا يعلم معناها أحد من البشر فأمسكوا عن الاستدلال بها وكان الامام أحمد ينكر طريقة أهل البدع الذين يفسرون القرآن برأيهم وتأويلهم من غير استدلال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين الذين بلغهم الصحابة معاني القرآن كما بلغوهم ألفاظه ونقلوا هذا كما نقلوا هذا لكن أهل البدع يتأولون النصوص بتأويلات تخالف مراد الله ورسوله ويدعون أن هذا هو التأويل الذي يعلمه الراسخون وهم مبطلون في ذلك لاسيما تأويلات القرامطة والباطنية الملاحدة وكذلك أهل الكلام المحدث من الجهمية والقدرية وغيرهم ولكن هؤلاء يعترفون بأنهم لا يعلمون التأويل وانما غايتهم أن يقولوا ظاهر هذه الآية غير مراد ولكن يحتمل أن يراد كذا وأن يراد كذا ولو تأولها الواحد منهم بتأويل معين فهو لا يعلم أنه مراد الله ورسوله بل يجوز أن يكون مراد الله ورسوله عندهم غير ذلك كالتأويلات التي يذكرونها في نصوص الكتاب كما يذكرونه في قوله (وجاء ربك والملك صفا صفا) و(ينزل ربنا) و(الرحمن على العرش استوى — وكلم الله موسى تكليما — غضب الله عليهم — وانما أمره اذا

أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) وامثال ذلك من النصوص فان غاية ماعندهم يحتمل أن يراد به كذا ويجوز كذا ونحو ذلك وليس هذا علما بالتأويل وكذلك كل من ذكر في نص أقوالا واحتمالات ولم يعرف المراد فانه لم يعرف تفسير ذلك وتأويله وانما يعرف ذلك من عرف المراد

ومن زعم من الملاحدة أن الادلة السمعية لاتفيد العلم فمضمون مذهبه أنه لايعلم أحد تفسير المحكم ولاتفسير المتشابه ولا تأويل ذلك وهذا اقرار منه على نفسه بأنه ليس من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويل المتشابه فضلا عن تأويل المحكم فاذا انضم الى ذلك أن يكون كلامهم في العقليات فيه من السفسطة والتلبيس مالا يكون معه دليل على الحق لم يكن عندهم لا علم ولا معرفة بالسمعيات ولا بالعقليات وقد أخبر الله عن أهل النار أنهم قالوا (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ومدح الذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يفقهون ويعقلون وذم الذين لا يفقهون ولا يعقلون في غير موضع من كتابه وأهل البدع المخالفون للكتاب والسنة يدعون العلم والعرفان والتحقيق وهم من أجهل الناس بالسمعيات والعقليات وهم يجعلون ألفاظهم المجملة المتشابهة تتضمن حقا وباطلا يجعلونها هي الاصول المحكمة ويجعلون ماعارضها من نصوص الكتاب والسنة من المتشابه الذي لايعلم معناه عندهم الا الله وما يتأولونه بالاحتمالات لا يفيد فيجعلون البراهين شبهات والشبهات براهين كما قد بسط ذلك في موضع آخر

وقد نقل القاضي أبو يعلى عن الامام أحمد أنه قال المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج الى بيان والمتشابه مااحتاج الى بيان وكذلك قال الامام أحمد في رواية وعن الشافعي قال المحكم مالا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا والمتشابه مااحتمل من التأويل وجوها وكذلك قال الامام أحمد وكذلك قال ابن الانباري المحكم مالم يحتمل من التأويل الا وجها واحدا والمتشابه الذي تعتوره التأويلات فيقال حينئذ فجميع الامة سلفها وخلفها يتكلمون في معاني القرآن التي تحتمل التأويلات وهؤلاء الذين يفسرون أن الراسخين في العلم لايعلمون معنى المتشابه هم من أكثر الناس كلاما فيه والأئمة كالشافعي وأحمد ومن قبلهم كلهم يتكلمون فيما يحتمل معاني

ويرجحون بعضها على بعض بالأدلة في جميع مسائل العلم الاصولية والفروعية لا يعرف عن عالم من علماء المسلمين انه قال عن نص احتج به محتج في مسئلة ان هذا لا يعرف أحد معناه فلا يحتج به ولو قال أحد ذلك لقيل له مثل ذلك واذا ادعى في مسائل النزاع المشهورة بين الائمة أن نصه محكم يعلم معناه وان النص الآخر متشابه لا يعلم أحد معناه قول يمثل هذه الدعوى

وهذا بخلاف قول القائل ان من منصوص ما معناه جلي واضح ظاهر لا يحتمل الا وجها واحدا لا يقع فيه اشتباه ومنها ما فيه خفاء واشتباه يعرف معناه الراسخون في العلم فان هذا مستقيم صحيح وحينئذ فالخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال انه يعرف معناه يبين حجة على ذلك وأيضا فما ذكره السلف والخلف في المتشابه يدل على أنه كله يعرف معناه فمن قال ان المتشابه هو المنسوخ فمعنى المنسوخ معروف وهذا القول مأثور عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم وابن مسعود وابن عباس وقتادة هم الذين نقل عنهم ان الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ومعلوم قطعا باتفاق المسلمين ان الراسخين يعلمون معنى المنسوخ فكان هذا النقل عنهم يناقض ذلك النقل ويدل على أنه كذب ان كان هذا صدقا والا تعارض النقلان عنهم والمتواتر عنهم ان الراسخين يعلمون معنى المتشابه

القول الثاني ما يروى عن جابر بن عبد الله أنه قال المحكم ما علم العلماء تأويله والمتشابه ما لم يكن للعلماء الى معرفته سبيل كقيام الساعة ومعلوم أن وقت قيام الساعة مما اتفق المسلمون على أنه لا يعلمه الا الله فاذا أريد بلفظ التأويل هذا كان المراد به لا يعلم وقت تأويله الا الله وهذا حق ولا يدل ذلك على أنه لا يعرف معنى الخطاب بذلك وكذلك أن أريد بالتأويل حقائق ما يوجد وقيل لا يعلم كيفية ذلك الا الله فهذا قد قدمناه وذكرنا أنه على قول هؤلاء من وقف عند قوله (وما يعلم تأويله الا الله) هو الذي يجب أن يراد بالتأويل وأما أن يراد بالتأويل التفسير ومعرفة المعنى ويقف على قوله الا الله فهذا خطأ قطعا مخالف للكتاب والسنة واجماع المسلمين ومن قال ذلك من المتأخرين فانه متناقض يقول ذلك ويقول ما يناقضه

هذا القول يناقض الايمان بالله ورسوله من وجوه كثيرة ويوجب القدح في الرسالة ولا ريب أن الذي قاله لم يتدبروا لوازمه وحقيقة ماأطلقوه وكان أكبر قصدهم دفع تأويلات أهل البدع المتشابهة وهذا الذي قصدوه حق وكل مسلم يوافقهم عليه لكن لاندفع باطلا بباطل آخر ولاترد بدعة ببدعة ولا يرد تفسير أهل الباطل للقرآن بأن يقال الرسول والصحابة كانوا لا يعرفون تفسير ماتشابه من القرآن ففي هذا من الطعن في الرسول وسلف الأمة ماقد يكون أعظم من خطأطائفة في تفسير بعض الآيات والعاقل لايبني قصرا ويهدم مصرا

والقول الثالث أن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور يروى هـذا عن ابن عباس وعلى هذا القول فالحروف المقطعة ليست كلاما تاما من الجمل الاسمية والفعلية وانما هي أسماء موقوفة ولهذا لم تعرب فان الاعراب انما يكون بعد العقد والتركيب وانما نطق بها موقوفة كما يقال أ ب ت ولهذا تكتب بصورة الحرف لا بصورة الاسم الذي ينطق به فانها في النطق أسماء ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن النطق بالزاي من زيد قالوا زاي قال نطقتم بالاسم وانما النطق بالحرف زه فهي في اللفظ أسماء وفي الخط حروف مقطعة الم لا تكتب ألف لام ميم كما يكتب قول النبي صلى الله عليه وسلم «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف» والحرف في لغة الرسول وأصحابه يتناول الذي يسميه النحاة اسما وفعلا وحرفا لهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا بفعل فانه لما كان معروفا من اللغة أن الاسم حرف والفعل حرف خص هذا القسم الثالث الذي يطلق النحاة عليه الحرف أنه جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل وهـذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام وأما حروف الهجاء فتلك انما تكتب في صورة الحرف المجرد وينطق بها غير معربة ولا يقال فيها معرب ولا مبني لان ذلك انما يقال في المؤلف واذا كان على هذا القول كل ماسوى هذه محكم حصل المقصود فانه ليس المقصود الا معرفة كلام الله وكلام رسوله ثم يقال هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن

معروفا وهو المتشابه كان ماسواها معلوم المعنى وهذا المطلوب وأيضا فان الله تعالى قال (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء وانما يعدها آيات الكوفيون وسبب نزول هذه الآية الصحيح يدل على أن غيرها أيضا متشابه ولكن هذا القول يوافق ما نقل عن اليهود من طلب علم المدد من حروف الهجاء

والرابع أن المتشابه ما اشتبهت معانيه قاله مجاهد وهذا يوافق قول أكثر العلماء وكلهم يتكلم في تفسير هذا المتشابه ويبين معناه

والخامس أن المتشابه ما تكررت ألفاظه قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المحكم ما ذكر الله في كتابه من قصص الانبياء ففصله وبينه والمتشابه هو ما اختلفت ألفاظه في قصصهم عند التكرير كما قال في موضع من قصة نوح (احمل فيها) وقال في موضع آخر (اسلك فيها) وقال في عصا موسى (فاذا هي حية تسعى) وفي موضع (فاذا هي ثعبان مبين) وصاحب هذا القول جعل المتشابه اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى كما يشتبه على حافظ القرآن هذا اللفظ بذلك اللفظ وقد صنف بعضهم في هذا المتشابه لان القصة الواحدة يتشابه معناها في الموضعين فاشتبه على القاري أحد اللفظين بالآخر وهذا المتشابه لا ينفي معرفة المعاني بلا ريب ولا يقال في مثل هذا أن الراسخين يختصون بعلم تأويله فهذا القول ان كان صحيحا كان حجة لنا وان كان ضعيفا لم يضرنا

السادس أنه ما احتاج الى بيان كما نقل عن أحمد

والسابع أنه ما احتمل وجوها كما نقل عن الشافعي وأحمد وقد نقل عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال انك لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها وقد صنف الناس كتب الوجوه والنظائر فالنظائر اللفظ الذي اتفق معناه في الموضعين وأكثر والوجوه الذي اختلف معناه كما يقال الاسماء المتواطئة والمشتركة وان كان بينهما فرق لبسطه موضع آخر وقد قيل هي نظائر في اللفظ ومعانيها مختلفة فتكون كالمشترك وليس كذلك بل الصواب أن المراد بالوجوه والنظائر هو الأول وقد تكلم المسلمون سلفهم وخلفهم في معاني الوجوه وفيما يحتاج الى بيان وما يحتمل

وجوها فعلم يقينا أن المسلمين متفقون على أن جميع القرآن مما يمكن العلماء معرفة معانيه

واعلم أن من قال ان من القرآن كلاما لا يفهم أحد معناه ولا يعرف معناه الا الله فانه مخالف لاجماع الامة مع مخالفته للكتاب والسنة

والثامن أن المتشابه هو القصص والامثال وهذا أيضا يعرف معناه

والتاسع أنه ما يؤمن به ولا يعمل به وهذا أيضا مما يعرف معناه

والعاشر قول بعض المتأخرين ان المتشابه آيات الصفات وأحاديث الصفات وهذا أيضا مما يعلم معناه فان أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنه يعرف معناها والبعض الذي تنازع الناس في معناه انما ذم السلف منه تأويلات الجهمية ونفوا علم الناس بكيفيته كقول مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول وكذلك قال سائر أئمة السنة وحينئذ ففرق بين المعنى المعلوم وبين الكيف المجهول فان سمي الكيف تأويلا ساغ أن يقال هذا التأويل لا يعلمه الا الله كما قدمناه أولا وأما اذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا كما يجعل معرفة بعض آيات القرآن تأويلا وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم وجبريل والصحابة والتابعين ما كانوا يعرفون معنى قوله (الرحمن على العرش استوى) ولا يعرفون معنى قوله (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) ولا معنى قوله (غضب الله عليهم) بل هذا عندهم بمنزلة الكلام العجمي الذي لا يفهمه العربي وكذلك اذا قيل كان عندهم قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وقوله (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار) وقوله (وكان سميعا بصيرا) وقوله (رضي الله عنهم ورضوا عنه) وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله (وأحسنوا ان الله يحب المحسنين) وقوله (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله (انا جعلناه قرآنا عربيا) وقوله (فأجره حتى يسمع كلام الله) وقوله (فلما أتاها نودي أن بورك من في النار ومن حولها) وقوله (هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) وقوله (وجاء ربك والملك صفا صفا - هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك - ثم استوى الى السماء وهي دخان - انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون) الى امثال هذه الآيات فمن قال

(١)عن جبريل ومحمد صلوات الله عليهما وعن الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين والجماعة أنهم كانوا لايعرفون شيأ من معاني هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وانما كانوا يقرؤن ألفاظا لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الانسان كلاما لايفهم منه شيأ فقد كذب على القوم والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا وأنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن وان كان كنه الرب عز وجل لايحيط به العباد ولا يحصون ثناء عليه فذاك لا يمنع أن يعلموا من أسمائه وصفاته ماعلمهم سبحانه وتعالى كما أنهم اذا علموا أنه بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير لم يلزم أن يعرفوا كيفية علمه وقدرته واذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته وهذا مما يستدل به على أن الراسخين يعلمون التأويل فان الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لايعرفون كيفية ماأخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لاينفي العلم بالتأويل الذي هو معرفة الكلام وبيان معناه بل يعلمون تأويل المحكم والمتشابه ولا يعلمون كنه الرب لا بهذا ولا بهذا

فان قيل هذا يقدح فيما ذكرتم من الفرق بين التأويل الذي يراد به التفسير وبين التأويل الذي في كتاب الله تعالى قيل لايقدح في ذلك فان معرفة تفسير اللفظ ومعناه وتصور ذلك في القلب غير معرفة الحقيقة الموجودة في الخارج المرادة بذلك الكلام فان الشيء له وجود في الاعيان ووجود في الاذهان ووجود في اللسان ووجود في البيان فالكلام لفظ له معنى في القلب ويكتب ذلك اللفظ بالخط فاذا عرف الكلام وتصور معناه في القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج وليس كل من عرف الاول عرف عين الثاني مثال ذلك أن أهل الكتاب يعلمون مافي كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ونعته وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام وكذلك الانسان قد يعرف الحج والمشاعر كالبيت والمساجد ومنى وعرفة ومزدلفة ويفهم معنى ذلك ولايعرف الأمكنة حتى يشاهدها

(١) جملة فمن قال الخ هي جواب قوله « وأما اذا جعل معرفة المعنى وتفسيره تأويلا » الخ

فيعرف أن الكعبة المشاهدة هي المذكورة في قوله (ولله على الناس حج البيت) وكذلك أرض عرفات هي المذكورة في قوله (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله) وكذلك المشعر الحرام هي المزدلفة التي بين مأزمي عرفة ووادي محسر يعرف أنها المذكورة في قوله (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وكذلك الرؤيا يراها الرجل ويذكر له العابر تأويلها فيفهمه ويتصوره مثل أن يقول هذا يدل على أنه كان كذا ويكون كذا وكذا ثم اذا كان ذلك فهو تأويل الرؤيا ليس تأويلها نفس علمه وتصوره وكلامه ولهذا قال يوسف الصديق (هذا تأويل رؤياي من قبل) وقال (لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) فقد أنبأهما بالتأويل قبل أن يأتي التأويل وان كان التأويل لم يقع بعد وان كان لا يعرف متى يقع فنحن نعلم تأويل ما ذكر الله في القرآن من الوعد والوعيد وان كنا لا نعرف متى يقع هذا التأويل المذكور في قوله سبحانه وتعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله) الآية

(أقول) ثم إنه رجح ما شاء الله في الباب بالشواهد واحتج بالآيات الكثيرة التي تحث على فهم القرآن وتدبره وعلى العلم والعقل والفقه فيه وذكر أن بعضهم استدل بأن الله تعالى لم يطلع على الغيب إلا من ارتضى كان منفردا به وذكر الآيات الشاهدة بذلك ومنه علم الساعة والغيب فمن أراد التفصيل فليرجع اليه

آيات وأحاديث الصفات

اعلم ان ماتلقيناه في كتب العقائد التي تقرأ للمبتدئين من طلاب العلم في ديار مصر والشام كالجوهرة والسنوسية الصغرى وما كتب عليها من شروح وحواش هو أن للمسلمين في الآيات والأحاديث المتشابهات في الصفات مذهبين مذهب السلف وهو الايمان بظاهرها مع تنزيه الله تعالى عما يوهمه ذلك الظاهر وتفويض الأمر فيه الى الله تعالى — ومذهب الخلف وهو تأويل ما ورد من النصوص في ذلك بحمله على المجاز أو الكناية ليتفق النقل مع العقل . وقالوا ان مذهب السلف أسلم لجواز أن يكون ما حمل عليه اللفظ المتشابه غير مراد الله تعالى ومذهب الخلف أعلم لانه يفسر النصوص جميعا ويحمل بعضها على بعض فلا

يكون صاحبه مضطرباً في شيء من دينه . وقالوا ان الخلاف في التأويل والتفويض مبني على الخلاف في قوله تعالى (والراسخون في العلم) هل هو معطوف على ما قبله أم الواو للاستئناف والراسخون مبتدأ خبره (يقولون آمنا به) الخ هـذا ملخص ما يلقن الطلاب في هذا العصر كتبناه من غير مراجعة لهـذه الـكتب القاصرة التي اعتمد عليها الازهريون ومن على شاكلتهم فليراجعها من شاء في حاشية الجوهرة للباجوري عند قول المتن

وكل نص أوهم التشبيها أوّله أو فوّض ورم تنزيها

وكنا نظن في أوائل الطلب ان مـذهب السلف ضعيف وأنهـم لم يؤولوا كما أوّل الخلف لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم لاسيما الحنابلة كلهم أو بعضهم . ولما تغلغلنا في علم الـكلام وظفرنا بعد النظر في الـكتب التي هي منتهى فلسفة الاشاعرة في الـكلام بالكتب التي تبين مذهب السلف حق البيان لاسيما كتب ابن تيمية علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب وان كل ما خالفه فهو ظنون وأوهام لا تغني من الحق شيئاً

وذهب بعض العلماء الى مـذهب بين المذهبين ففرق بين النص المتشابه الذي اذا صرف عن ظاهره يتعين فيه معنى واحـد من المجاز وبين ما يحتمل أكثر من معنى فأوجب تأويل الاول دون الثاني . والمشهور أن الناس قسمان مثبتون للصفات ونافون لها وأكثر المحدثين وأهل الأثر مثبتون مفوضون وأكثر المتكلمين نفاة مؤولون . قال السعد التفتازاني في مبحث الصفات المختلف فيها من شرح المقاصـد : « ومنها ما ورد به ظاهر الشرع وامتنع حملها على معانيها الحقيقية مثل الاستواء في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) واليـد في قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم : وما منعك ان تسجد لما خلقت بيديّ) والوجه في قوله تعالى (ويبقى وجـه ربك) والعين في قوله (ولتصنع على عيني : و : تجري بأعيننا) فعن الشيخ أن كلا منها صـفة زائدة وعن الجمهور وهو أحـد قولي الشيخ إنها مجازات فالاستواء مجاز عن الاستيلاء أو تمثيل وتصوير لعظمة الله تعالى واليد مجاز عن القدرة والوجه عن الوجود والعين عن البصر . فان قيل

جملة المكونات مخلوقة بقدرة الله تعالى فما وجه تخصيص خلق آدم صلى الله عليه وسلم سيما بلفظ المثنى وما وجه الجمع في قوله (بأعيننا) أجيب بأنه أريد كمال القدرة وتخصيص آدم تشريف له وتكريم . ومعنى (تجري بأعيننا) أنها تجري بالمكان المحوط بالكلاءة والحفظ والرعاية يقال فلان بمرأى من الملك ومسمع اذا كان بحيث تحوطه عنايته ، وتكتنفه رعايته ، وقيل المراد الاعين التي انفجرت من الارض وهو بعيد . وفي كلام المحققين من علماء البيان أن قولنا الاستواء مجاز عن الاستيلاء واليد واليمين عن القدرة والعين عن البصر ونحو ذلك إنما هو لنفي وهم التشبيه والتجسيم بسرعة وإلا فهي تمثيلات وتصويرات للمعاني العقلية بإبرازها في الصور الحسية وقد بينا ذلك في شرح التلخيص » اه كلام السعد ونحوه في المواقف وشرحه

ومثل هذه الصفات التي هي في الحادث أعضاء وحركات أعضاء الصفات التي هي في الحادث انفعالات نفسية كالمحبة والرحمة والرضا والغضب والكراهة فالسلف يمرونها على ظاهرها مع تنزيه الله تعالى عن انفعالات المخلوقين فيقولون ان لله تعالى محبة تليق بشأنه ليست انفعالا نفسيا كمحبة الناس . والخلف يؤولون ماورد من النصوص في ذلك فيرجعونه الى القدرة أو الارادة فيقولون الرحمة هي الاحسان بالفعل أو ارادة الاحسان ومنهم من لا يسمي هذا تأويلا بل يقولون إن الرحمة تدل على الانفعال الذي هو رقة القلب المخصوصة على الفعل الذي يترتب على ذلك الانفعال وقالوا ان هذه الالفاظ اذا أطلقت على الباري تعالى يراد بها غاياتها التي هي أفعال دون مباديها التي هي انفعالات

وانما يردون هذه الصفات الى القدرة والارادة بناء على أن إطلاق لفظ القدرة والارادة وكذا العلم على صفات الله إطلاق حقيقي لا مجازي والحق أن جميع ما أطلق على الله تعالى فهو منقول مما أطلق على البشر ولما كان العقل والنقل متفقين على تنزيه الله تعالى عن مشابهة البشر تعين أن نجمع بين النصوص فنقول إن لله تعالى قدرة حقيقة ولكنها ليست كقدرة البشر وان له رحمة ليست كرحمة البشر وهكذا نقول في جميع ما أطلق عليه تعالى جمعا بين النصوص ولا ندعي

ان إطلاق بعضها حقيقي وإطلاق البعض الآخر مجازي فكما أن القدرة شأن من شؤونه لا يعرف كنهه ولا يجهل أثره كذلك الرحمة شأن من شؤونه لا يعرف كنهه ولا يخفى أثره وهذا هو مذهب السلف فهم لا يقولون ان هذه الالفاظ لا يفهم لها معنى بالمرة ولا يقولون أنها على ظاهرها بمعنى أن رحمة الله كرحمة الانسان ويده كيده وان ظن ذلك في الحنابلة بعض الجاهلين . ومحققو الصوفية لا يفرقون بين صفات الله تعالى ولا يجعلون بعضها محكما إطلاق اللفظ عليه حقيقي وبعضها متشابها إطلاقه عليه مجازي بل كل ما أطلق عليه تعالى فهو مجاز

قال الامام أبو حامد الغزالي في بيان معنى محبة الله العبد من الاحياء بعد كلام: «وقد ذكرنا ان محبة الله تعالى حقيقة وليست بمجاز اذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا أن الاحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا وان الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر، فأما حب الله العبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا حتى ان اسم الوجود الذي هو أعم الاسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء في اطلاق الاسم نظير اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم اذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لأنه يكون فيه أصلا فليست الجسمية لاحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه . وهذا التباعد في سائر الاسامي أظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة انما وضع هذه الاسامي أولا للخلق فان الخلق أسبق الى العقول والافهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل» اهما نريده ثم فسر محبة لله العبد بكلام طويل فيه مجال للبحث والنظر

وقال في كتاب الشكر من الاحياء : « ان لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين

واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلوّ شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد فهمهم الى مبادي اشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جداً فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع.

« ثم الخلق ينقسم في الوجود الى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة « المشيئة » فهي توهم منها أمراً مجملا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة.

« ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى ما ينساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة الى صفة المشيئة لرجوعها الى الاختصاصات التي بها تم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة « المحبة » واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة « الكراهة » وقيل انهما داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمراً مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات » اه المراد. ثم ذكر نحو ذلك في الرضا والغضب والكفر والشكر وبين ان المرضي عنه من كان في عمله منتهياً لحكمة الله تعالى في عباده أي بالقيام بسننه الكونية والشرعية وهو الشاكر لله أو الشكور والمغضوب عليه ضده وهو الكافر أو الكفور. وليس في هذا البيان العجيب من منازع المتكلمين الا جعل المحبة والكراهة والرضا والغضب داخلة في وصف المشيئة على تردد في ذلك والأشبه بمذهب السلف ان يقال انها شؤون خاصة لله تعالى ظهر أثرها في خلقه بما ذكر.

وقال في كتابه (المقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى) وكأنا اذا عرفنا

ان الله تعالى حي قادر عالم لم نعرف أولا الا أنفسنا ولم نعرفه الا بأنفسنا اذ الاصم لا يتصور معنى قولنا ان الله سميع والأكمه لا يعرف معنى قولنا انه بصير وكذلك اذا قال القائل كيف يكون الله تعالى عالما بالاشياء فنقول له كما تعلم أنت أشياء فاذا قال كيف يكون قادرا فنقول كما تقدر أنت فلا يمكنه ان يفهم شيئا الا اذا كان فيه ما يناسبه فيعلم أولا ماهو متصف به ثم يعلم غيره بالمناسبة اليه فاذا كان لله وصف وخاصية ليس فينا ما يناسبه ويشاركه ولو في الاسم لم يتصور فهمه ألبتة فما عرف أحد الا نفسه ثم قايس بين صفات الله تعالى وبين صفات نفسه وكما الى صفات الله تعالى وتقدس عن ان تشبه صفاتنا اه

فحاصل ما تقدم أن جميع ما أطلق على الله تعالى من الاسماء والصفات هو مما أطلق قبل ذلك على الخلق اذ لو وضع لصفات الله تعالى ألفاظ خاصة وخوطب بها الناس لما فهموا منها شيئا قال تعالى (١٤: ٤ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وقد جاء الرسل عليهم الصلاة والسلام بما دل عليه العقل من تنزيهه تعالى عن صفات المخلوقين وكونه لا يماثل شيئا ولا يماثله شيء فعلم ان جميع ما أطلقوه عليه من الالفاظ الدالة على الصفات كالقدرة والرحمة وعلى الافعال والحركات كالخلق والرزق والاستواء على العرش وعلى الاضافة ككونه فوق عباده لا ينافي أصل التنزيه بل يجب الايمان بها وبما يدل عليه مع التنزيه فنقول ان له قدرة ليست كقدرتنا ورحمة ليست كرحمتنا وخلقا ليس كخلقنا فان الخلق في اللغة التقدير المعروف من الناس للاشياء وهو تعالى أحسن الخالقين لا يخلق كخلقه أحد كما قال (١٣: ١٦ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) وليس استواؤه على عرشه كاستواء الملوك على عروشهم كما ان عرشه ليس كعروشهم ولا علوه على خلقه كعلو بعض الاجسام على بعض كما انه تعالى ليس جسما مماثلا لهم · والسلف والخلف أو الأثريون والمتكلمون كلهم متفقون على تنزيه الله تعالى عن مماثلة خلقه وعلى أن جميع ما جاء على ألسنة الرسل في وصفه تعالى والحكاية عنه حق إلا أن المتكلمين يقولون ان العقل دل على أن لهذا العالم خالقا عالما مريدا قادرا فهذه الصفات ثابتة له عقلا وعليها مدار اثبات الالوهية بالبرهان لان جميع الكائنات دالة عليها فما يرد من الصفات السمعية

يجب ارجاعه اليها ولا لعده صفة زائدة والسلف الأثريون يقولون لا نفرق بين صفات الله تعالى التي أثبتها لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله . وانما هذا خلاف صوري اذ لاخلاف في التنزيه وفي كون كل ماجاء عن الله في ذلك حق ولولا ان المسلمين انقسموا الى مذاهب عني أهل كل مذهب منها باثبات مذهبهم وتأييده ، وابطال مخالفه وتفنيده ، لزال هذا الخلاف وعرف الاكثرون الحق صورة ومعنى حتى لايشنع أشعري على حنبلي ولا أثري على نظري ولذلك ترى محققي المتكلمين رجعوا في آخر عهدهم الى مذهب السلف وبذلك صرح الشيخ أبو الحسن الاشعري في الابانة وأبو حامد الغزالي في (إلجام العوام من علم الكلام) وغيره من كتبه التي ألفها في آخر حياته

هذا ولا ننكر أن الاثريين من الحنابلة وغيرهم قد وقع لبعضهم مايكاد يكون نصاً في التجسيم ، أو جعل كل ماورد في صفات الله وأفعاله صفات لا نفهم وانما تؤخذ بالتسليم ، وانما العبرة بما كتبه علماؤهم المحققون كابن تيمية وابن القيم وقد قال ابن تيمية ان خطأ المتكلمين في نفي الصفات أكثر من خطأ الاثريين في الاثبات أ كثر .

أقول ومن عجيب صنع بعضهم أنهم ذكروا السمع والبصر والكلام وعدوها من الصفات التي عليها مدار الايمان بالالوهية على انهم سموها صفات سمعية ولم يذكروا الحكمة والرحمة والمحبة مع ان السمع ورد بها والدلائل العقلية عليها أظهر اذ العقل يجيز أن يقال ان صفة العلم الالهي محيطة بالمسموعات والمبصرات وبذلك يسمى سميعاً بصيرا ولا حاجة الى القول بان السمع والبصر صفتان زائدتان من صفات الالوهية ولا يظهر مثل هذا القول في ادراج الحكمة والرحمة والمحبة ونحوها في صفتي الارادة والقدرة

وانني انقل في هذا المقام جملة من كلام أهل الاثر وتابعي السلف في معنى ماتقدم من عدم التفرقة بين صفات الله تعالى ليعلم الجامدون على مافي كتب الكلام والتفسير التي ألفها الاشاعرة انهم كتبوا بعقل ، وهم أجود الناس فهما للنقل ، جاء في شرح عقيدة السفاريني الحنبلي في هذا المبحث ما نصه :

«قال شيخ الاسلام في التدمرية القول في بعض الصفات كالقول في بعض فان كان المخاطب ممن يقر بأن الله تعالى حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة سميع بسمع بصير ببصر متكلم بكلام مريد بارادة ويجعل ذلك كله حقيقة وينازع

في محبته تعالى ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازا ويفسره اما بالارادة واما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات قيل له لا فرق بين ما نفيته وبين ما ثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر فان قلت ان ارادته مثل ارادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل وان قلت له ارادة تليق به كما أن للمخلوق ارادة تليق به قيل لك وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به وله تعالى رضى وغضب يليق به كما للمخلوق رضى وغضب يليق به فان قال الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام قيل له والارادة ميل النفس الى جلب منفعة أو دفع مضرة فان قلت هذه ارادة المخلوق قيل لك وهذا غضب المخلوق وكذلك يلزم بالقول في علمه وسمعه وبصره وقدرته ونحو ذلك فهذا الفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له فيما نفاه كما يقوله هو لمنازعه فيما أثبته فان قال تلك الصفات أثبتها بالعقل لأن الفعل دل على القدرة والتخصيص دل على الارادة والإحكام دل على العلم وهذه الصفات مستلزمة للحياة والحي لا يخلو عن السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك قال له سائر أهل الاثبات لك جوابان (أحدهما) أن يقال عدم الدليل المعين لا يستلزم عدم المدلول المعين فهب انما سلكته من الدليل العقلي لا يثبت ذلك فانه لا ينفيه وليس لك أن تنفيه من غير دليل لأن النافي عليه الدليل كما على المثبت والسمع قد دل عليه ولم يعارض ذلك معارض عقلي ولا سمعي فيجب اثبات ما أثبته الدليل السالم عن المعارض المقاوم (الثاني) أن يقال يمكن اثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك من العقليات فيقال نفع العباد بالاحسان اليهم وما يوجد في المخلوقات من المنافع للمحتاجين وكشف الضر عن المضرورين وأنواع الرزق والهدى والمسرات دليل على رحمة الخالق كدلالة التخصيص على الارادة والمشيئة والقرآن يثبت دلائل الربوبية بهذه الطريق تارة يدلهم بالآيات المخلوقة على وجود الخالق ويثبت علمه وقدرته وحياته وتارة يدلهم بالنعم والآيات على وجود بره واحسانه المستلزم رحمته وهذا كثير في القرآن وان لم يكن مثل الاول أو أكثر منه لم يكن أقل منه بكثير وإكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم كما قد ثبت بالشاهد والخبر من اكرام

أوليائه وعقاب أعدائه والغايات الموجودة في مفعولاته ومأموراته وهي ماتنتهي اليه مفعولاته ومأموراته من العواقب الحميدة تدل على حكمته البالغة كما يدل التخصيص على الادارة وأولى لقوة الدلالة الغائية ولهذا كان مافي القرآن من بيان مخلوقاته من النعم والحكم أعظم مما في القرآن من بيان مافيها من الدلالة على محض المشيئة

« قال شيخ الاسلام طيب الله مضجعه ومما يوضح ذلك أن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر به الله ورسوله من صفاته تعالى ليس موقوفا على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها فان ما يعلم بالاضطرار من دين الاسلام أن الرسول اذا أخبرنا بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به وان لم تعلم ثبوته بعقولنا ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم (وقالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالاته) ومن سلك هذا السبيل فليس في الحقيقة مؤمنا بالرسول ولا متلقيا عنه الاخبار بشأن الربوبية ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به فان ما أخبر به اذا لم يعلمه بعقله لا يصدق به بل يتأوله أو يفوضه وما لم يخبر به ان علمه بعقله آمن به فلا فرق عند من سلك هذه السبيل بين وجود الرسول واخباره وبين عدم الرسول واخباره وكان ما يذكر من القرآن والحديث والاجماع عديم الاثر عنده .

قال شيخ الاسلام في شرح الاصفهانية وقد صرح بهذا أئمة هذا الطريق قال ثم أهل الطرق البدعية فيهم من يحيل على الكشف وكل من الطريقين فيها من الاضطراب والاختلاف ما لا ينضبط وليست واحدة منها تحصل المقصود بدون الطريق النبوية والطريق النبوية بها يحصل الايمان النافع في الآخرة ثم ان حصل قياس أو كشف يوافق ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم كان حسنا مع أن القرآن قد نبه على الطريق الاعتبارية التي بها يستدل على مثل ما في القرآن كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فاخبر أنه يري عباده من الآيات المشهودة التي هي أدلة عقلية ما يبين أن القرآن حق وليس لقائل أن يقول انما خصت هذه الصفات بالذكر لان السمع موقوف عليها دون غيرها فان الامر ليس كذلك لان التصديق بالسمعيات ليس موقوفا على اثبات السمع والبصر ونحو ذلك ثم قال شيخ

الاسلام قدس الله روحه والمقصود هنا التنبيه على أن ما يجب اثباته لله تعالى من الصفات ليس مقصورا على ما ذكره هؤلاء مع اثباتهم بعض صفاته بالعقل و بعضها بالسمع فان من عرف حقائق أقوال الناس بطرقهم التي دعتهم الى تلك الاقوال حصل له العلم والرحمة فعلم الحق ورحم الخلق وكان مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهذه خاصة أهل السنة المتبعين الرسول صلى الله عليه وسلم فانهم يتبعون الحق و يرحمون من خالفهم باجتهاده حيث عذره الله ورسوله وأما أهل البدع فيبتدعون بدعة باطلة ويكفرون من خالفهم فيها انتهى وبالله التوفيق

أقول وقد اشتهر عن الحنابلة وغيرهم من أهل الاثر اثبات صفة العلو لله تعالى حتى رماهم بعض المتكلمين بالقول بالتجسيم لان ذلك قول بالجهة وهو يستلزم الحد والجسمية فآخذوهم بلازم المذاهب وهم يجهلون مذهبهم وهم لم يقولوا الا بالنقل الموافق للعقل وهاك كلام واحد منهم نقلا عن شرح عقيدة السفاريني وهو:

«ذكر الامام أبو العباس عماد الدين أحمد الواسطي الصوفي المحقق العارف تلميذ شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله سرهما العلي قال فيه شيخ الاسلام انه جنيد زمانه في رسالته نصيحة الاخوان ما حاصله في مسألة العلو والفوقية والاستواء هو أن الله عز وجل كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء ولا فضاء ولا هواء ولا خلاء ولا ملاء وأنه كان منفردا في قدمه وأوليته متوحدا في فردانيته لا يوصف بانه فوق كما اذ لا شيء غيره هو تعالى بسابق التحت والفوق اللذين هما جهتا العالم وهو لا زمان له تعالى وهو تعالى في تلك الفردانية منزه عن لوازم الحدث وصفاته فلما اقتضت الارادة أن يكون الكون له جهات من العلو والسفل وهو سبحانه منزه عن صفات الحدث فكوّن الاكوان وجعل جهتي العلو والسفل واقتضت الحكمة الالهية أن يكون الكون في جهة التحت لكونه مربوبا مخلوقا واقتضت العظمة الربانية أن يكون هو تعالى فوق الكون باعتبار الكون لا باعتبار فردانيته اذ لا فوق فيها ولا تحت والرب سبحانه وتعالى كما كان في قدمه وأزليته وفردانيته لم يحدث له في ذاته ولا في صفاته ما لم يكن له في قدمه وأزليته فهو الآن كما كان. لما أحدث المربوب المخلوق ذا الجهات والحدود والملا ذا الفوقية والتحتية كان مقتضى

حكم العظمة الربوبية أن يكون فوق ملكه وأن تكون المملكة تحته باعتبار الحدوث من الكون لا باعتبار القدم المكون فاذا أشير اليه بشيء يستحيل أن يشار اليه من جهة التحتية أو من جهة اليمنة أو من جهة اليسرة بل لا يليق أن يشار اليه الا من جهة العلو والفوقية ثم الاشارة هي بحسب الكون وحدوثه وأسفله فالاشارة تقع على اعلا جزء من الكون حقيقة وتقع على عظمة الله تعالى كما يليق به لا كما يقع على الحقيقة المحسوسة عندنا في أعلا جزء من الكون فانها اشارة الى جسم وذلك الى اثبات .

اذا علم ذلك فالاستواء صفة كانت له سبحانه وتعالى في قدمه لكن لم يظهر حكمها إلا خلق العرش كما أن الحساب صفة قديمة لا يظهر حكمها الا في الآخرة وكذلك التجلي في الآخرة لا يظهر حكمه الا في محله قال واذا علم ذلك فالامر الذي تهرب المتأولة منه حيث أولوا الفوقية بفوقية المرتبة والاستواء بالاستيلاء فنحن أشد الناس هربا من ذلك وتنزيها للباري تعالى عن الحد الذي لا يحصره فلا يحد بحد يحصره بل بحد تتميز به عظمة ذاته عن مخلوقاته والاشارة اليه انما هو بحسب الكون وسفله اذ لا تمكن الاشارة اليه الا هكذا وهو في القدم سبحانه منزه عن صفات الحدث وليس القدم فوقية ولا تحتية وانما من هو محصور في التحت لا يمكنه معرفة بارئه الا من فوقه فتقع الاشارة الى العرش حقيقة اشارة معقولة وتنتهي الجهات عند العرش ويبقى ما وراءه لا يدركه العقل ولا يكيفه الوهم فتقع الاشارة عليه كما يليق به مجملا مثبتا مكيفا لا ممثلا (قال فاذا علمنا ذلك واعتقدناه تخلصنا من شبهة التأويل وعماوة التعطيل وحماقة التشبيه والتمثيل وأثبتنا علو ربنا وفوقيته واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله وعظمته والحق واضح في ذلك والصدر ينشرح له فان التحريف تأباه العقول الصحيحة مثل تحريف الاستواء بالاستيلاء وغيره والوقوف في ذلك جهل وغي مع كون الرب وصف نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها فوقوفنا عن اثباتها ونفيها عدول عن المقصود منه في تعريفنا اياها فما وصف لنا نفسه بها الا لنثبت ما وصف به نفسه ولا نقف في ذلك قال وكذلك التشبيه والتمثيل حماقة وجهالة فمن وفقه الله للاثبات فلا تحريف ولا تكييف ولا وقوف فقد وقع على الامر المطلوب منه ان شاء الله تعالى والله أعلم اهـ

باب المقالات

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها

(نشرت في العدد الثالث من العروة الوثقى بالعنوان الآتي) (١)

سُنّة الله في الذين خلوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ثم انشق عنها عماء العدم فاذا هي بجملة كل واحد منها كون بديع النظام قوي الاركان شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ويحيطها سور من منعة الهمم تخمد في ساحاتها عاصفات الزوازل وتنحل بأيدي مدبريها عقد [illegible] أعيان العزة بعد ما نبتت أصولها ورسخت جذورها وامتدت [illegible] اليها وتقدت منها الشوكة وعلت لها الكلمة [illegible] الآداب وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا سعادة الا في انتهاج منهجها وورود شريعتها وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل

وبعد هذا كله وهي بناؤها وانتثر منظومها وتفرقت فيها الاهواء وانشقت العصا وتبدد ما كان مجتمعاً وانحل ما كان منعقدا وانفصمت عرى التعاون وانقطعت روابط التعاضد وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية وهو في غيبة عن ان ضروريات حاجاته لا تنال الا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده والى

(١) نشرنا هذه المقالة فى المجلد الاول من المنار ونعيد نشرها الآن لما فيها من التذكير الذي يجب أن لا ينسى والعنوان لنا

﴿ الجامع الازهر – مشيخته وادارته ﴾

كتبنا في الجزء الثاني من منار السنة الماضية (ص ٧٦ م ٨) ما نصه :
ما كانت مشيخة الازهر في زمن من الأزمان عرضة للتغيير والتبديل من الحكام كما نراها في هذه السنين فقد تداول العزل والابدال شيوخ هذا الجامع عدة مرات في بضع سنين – عزل الشيخ حسونه باتفاق الحكومة مع الأمير وولي بعده الشيخ عبد الرحمن القطب فلم يلبث أن عزله حكم المنون فاختار الامير المشيخة الشيخ سليما البشري ثم عزله بمحض ارادته وولى مكانه السيد عليا الببلاوي بالاتفاق مع الحكومة أو مع أولي الأمر كما يقال . وفي هذا الشهر (أي صفر) استقال هذا الشيخ ونصب بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني باتفاق الحكومة » ثم ذكرنا استقالة الاستاذ الامام وبعض أعضاء مجلس الادارة

وكتبنا في نبذة أخرى أن الأمير قد اتفق مع حكومته على أن كل ما يهم الحكومة من الازهر [illegible] أن يكون [illegible] لتخريج القضاة الشرعيين وأن التعليم فيه لما كان غير كاف لتخريج القضاة عزمت الحكومة على انشاء مدرسة لتخريج القضاة خاصة . ثم قلنا أنه كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر مع حرصه على اصلاحه وأجبنا عن ذلك بالاشارة الى الشغب الذي بلغ في ذلك العهد غايته في ذلك المكان فان بعض الشيوخ الذين يترددون على قصر الامير كانوا يحرضون مدرسي الازهر على الشكوى من شيخ الازهر ومجلس الادارة وعدم الخضوع لما يراد تنفيذه من قانونه وعلى ما هو أعظم من ذلك وقد اشتهر عند الاكثرين أن الغرض من ذلك أن يستقيل شيخ الازهر والمفتي « رحمهما الله » وأن الامير هو الذي يريد ذلك . وأكد ذلك ما نشر لذلك العهد في الجوائب المصرية والمؤيد وغيرهما من الجرائد التي تخدم « المية » وأهم ذلك مقال في حديث قال صاحب الجوائب أنه جرى بينه و بين شيخ من كبار علماء الازهر وصفه بأوصاف فهم الناس منها أنه الشيخ عبد الرحمن الشربيني الذي كان بعض بطانة الامير يحاولون اقناعه

بقبول المشيخة التي أيقنوا أن البيلاوي مستقيل منها لما اتخذ لذلك من الاسباب الملجئة . ولما استقال السيد البيلاوي وعين الشيخ الشربيني شيخاً للازهر واحتفل بالباسه الخلعة بحضرة الامير ألقى الامير ذلك الخطاب على الشيوخ وكان مؤيداً لروح ما كانت تنشره تلك الجرائد

كان مدار ذلك الكلام على أن كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدو وبعد عن الشغب والقلاقل وأن يظل مدرسة دينية كما كان وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضا كبار شيوخه عن الامير واخلاصهم له هو مما يتجه جعل الشربيني شيخاً الازهر لانه في مقدمة العلماء الازهر بين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه وترك الشيخ محمد عبده له وهو من الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه ولكن جاء الامر على نقيض ما كان يظن أولئك الظانون فاستاء محبو الاصلاح من أهل الازهر لترك الاستاذ الامام لادارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان . وأما المحافظون على حاله العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشربيني اشد استياء من ادارة الازهر منهم على عهد من سبقه كما أشرنا الى ذلك في العدد الماضي وكثر في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في بيان جهل علماء الازهر بالدين وفقد الثقة بهم ما معناه ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه الا الى بعض حملة الطرابيش وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العمائم كاساتذة المدارس الاميرية وغيرهم

هذا ما ذكرنا برسالة كان أرسلها الينا زعيم النهضة الاسلامية في الهند السيد النواب محسن الملك خان الشهير بعلمه وفضله يرد بها على ما كنا اعتذرنا به عن علماء الازهر تعقيبا على رسالته التي نشرناها في الجزء السادس من السنة الماضية وهي التي أظهر فيها استياءه واستياء مسلمي الهند من ترك الاستاذ الامام للازهر وطعن فيها بعلمائه طعنا شديداً لم ننشرها في ذلك الوقت لمانع زال فنحن ننشرها الآن وهذه هي

بسم الله الرحمن الرحيم ـ واياه نعبد واياه نستعين

سعادة الفاضل الحكيم العلامة دمتم بالعز والكرامة

سلام عليكم فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه النبي الكريم · وعلى آله وصحبه السادة الهاميم · وبعد فانا قدسررنا وتنشطنا بحسن صنيعكم الينا من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي وقد سرني أيضا ما قد استتبعتم ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر واستفراغكم الوسع بذلك في دفع ما وقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتآها الناس فيهم ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم هو ان تعفوا عني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد فانه يا اخي ليس فيما أحسب مما ليطمئن به بال احد او ان يقتدي به ما قد رآه اكثر أهل النظر في هؤلاء العلماء من انهم لا يحبون اشاعة العلوم الحديثة ولا يجوزون لها السبيل والتطريق في المدارس والكليات ولا واحد عندي يقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما احسب فقدعلمت ياسيدي ان تعسف علماء الأزهر وتعصبهم للعلوم الخلقة البالية وخلافهم للاصلاح في شؤون التعليم والأخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه احد فقد شحنت بذلك الجرائد المصرية كلها لا سيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم لا يجوزون العدول بيسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس في الجامع الازهر ويتحرجون في تشكيل صناعة التاريخ والجغرافيا في نصاب الدرس الحاضر فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج الجديد في أرض أوروبا أفحسبت ياسيدي ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية ولا يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهارا أفتراهم يقلعون عن رأيهم في شأن هؤلاء العلماء أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فما أفديتم بنفسكم بأنهم يعتقدون بأن العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين وتفسد العقائد في قلوب

المسلمين وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم أفترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل أما تراهم يوافقونك في قولك وكل هذه الظنون فيهم باطلة كلا ولا كرامة وحاشاهم عن ذلك

فأما أنتم فلعمري لم تألوا جهدا في المحاماة عن هؤلاء العلماء وأتيتم في بيان ذلك بحجتين وكلتاهما ننتقد عليهما وننظر في وزنهما ورجحهما على منهاج أصحاب النظر أما الحجة الاولى فقولكم ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم ولا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر واوروبا الخ ولكن هذا الكلام منكم لا يجديهم نفعا ولا يحامي أو يذب عنهم بشيء فقد عرفتم ما هو من دين علماء هذا العصر أنهم يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يقولون وهم الدين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خويشتن سم وغله اندوزند

يعني بذلك أنهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكتنزون الفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم(*) ومن دينهم أيضا ان لا يطعنوا بشيء على الامراء والولاة كيلا يحرموا من صلاتهم ولا ييأسوا من استجلاب خيرهم ومبراتهم بل وانا نراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على ألاعيبهم ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين فتراهم لا ينكرون عليها بل يعاضدونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فشايخ الازهر يقرءون في كتب الحديث نهي الشارع عن بناء القبور واتخاذ المساجد عليها واتخاذها أعيادا وتعظيمها ثم أنهم يشاركون العامة في هذه الاعياد

(*) قال الشاعر العربي (وذموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثعل)

التي يسمونها موالد على مافيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه ثم أنهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف و يفرقه وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين وقد امرني بذلك بعضهم وكان شيخا للازهر قائلا انك من اهل العلم لا يليق بك ان ترسل شعرك فاحلقه فحججته بالسنة فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه النمرة الحاضرة « وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفا للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج فاما اذا اخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجها في هذا العصر الى علماء الدين فانهم يحلقون بل ينكرون على من لم يحلق وهم مخطئون »

هذا ام كيف يوافقكم احد في قولكم « ظلم وافك ظلم لعلماء الازهر ان يقال فيهم أنهم يعدون علوم الدنيا خطرا على الدين أو عائقا عن علومه وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدين والدنيا الى آخره »

وقد سلف منا مرارا انا قد رأينا في الجوائب المصرية انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين يجله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله و يعدونه حجة وقته وامام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ومن رأيه مايقول لمدير الجوائب ماتلك ألفاظه « غرض السلف من تأسيس الازهر اقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه و يؤخذ الدين كما تركه لنا الائمة الاربعة رضوان الله عليهم ..... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له » ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلا « هل حدث يامولاي ما يقف الازهر في الخدمة المطلوبة منه فتبسم الاستاذ ثم قال بل ان الذي من شأنه أن يهدم معالم التعلم الديني و يحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية الى آخره » وتجاهر في آخر كلامه متظاهرا قائلا « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس الا وليتركوه كما هو حصن للدين وان أرادوا به اصلاحاً فليكن الاصلاح

منحصرا في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم وما سوى ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة ان شاءت في مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وانا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأثاروا في اصلاح الازهر بما اضطر الخديوي الى اخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الازهر قائلا « ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الاسلامية »

ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهريين دائما » ولما كان يقال ان هؤلاء الرهط الذين يرومون الاصلاح كلهم مفسدون قال فيهم « أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائدا في الازهر الشريف والشغب بعيدا عنه فلا يشغل علماءه وطلبته ألا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاوهام والايهام بالاقوال او بواسطة الجرائد او الاخذ والرد فيها فليكن بعيدا عن الازهر ومن كان أجنبيا من هؤلاء فاولى به أن يرجع الى بلده ويبث فيها مايريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الازهر والازهريين »(١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرف حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء اكثرهم لا يجوزون الاصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مطفئة لنور الاسلام ولعمري أن هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الازهر القديم الذي كان من حقه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزا للنكبة وموطنا للمذلة ومعقلا للمسكنة وموضعا للمسغبة ولو نظرت الى العلوم التي تدرس فيها لوجدتها بأسرها علوما بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوما دينية ولا تجد فيها الا تلقين نبذ من المسائل التي تشمئز منها العقول وتمج قبولها احلام الفحول وذلك من اجل مخالفتها لقواعد الحكمة واصول الفطرة ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لا تستنير بها ادمغة الرجال ولا

(١) المنار: قالت جريدة اللواء يومئذ ان المراد بالاجنبي هنا صاحب المنار

يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم بل يتركزبها التقليد في تخوم قلوبهم وقد امتلأ القرآن العزيز بذمه وشحن الكتاب المجيد برده وجل همتهم في ان يحمل الناس على مناهج يعتقدون به ان الاسلام يدع هذه البدع ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من احاديث خرافة بل عين الشرك الجلي فضلا عن الشرك الخفي وانما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء اما في الدنيا أو في الدين هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم فأما سبل التعليم ومناهج تدريسهم وتنظيم الامور فيه فامره اشهر من ان يذكر وابين من ان يوضح ولقد تفجع له بعض فضلاء الهند الذي كان حلا بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا الى حيدراباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء العاشر من المجلد الخامس من مجلتكم المنار وبعد ذلك فهل تحسبون انا نحسن الظن بهؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا الى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم فقد كانوا يعتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية وكانوا يحضون المسلمين ويحثونهم ويحرضونهم على تحصيلها في تآليفهم وكتبهم واسفارهم وزبرهم التي كانوا يعملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلان اني آنست نارا في وادي هذه الفنون آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون » أوليس هؤلاء العلماء قد عثروا على قضية عمر بن حسام فيما اخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرء كتاب المجسطي على عمر الابهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرؤنه فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فانا افسر كيفية بنائها ولقد صدق الابهري فيما قال فان كل من كان اكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان اكثر علما بجلال الله وعظمته انتهى كلام الرازي بعيون الفاظه

اولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي ابي الوليد بن رشد (الذي) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد امرنا بذلك امرا اكيداً في كثير من الآيات وكتب في

آخر ذلك ماتلك عيون الفاظه » وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذي دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدي الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى ... » او لم يدر هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئة فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في التصريح شرح التشريح ـ الشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنين في معرفة الله واعظم من ذلك كله الاثر المأثور المشهور عن سيدنا علي فيما اشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخالف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لاسراره الغامضة الدقيقة وهو قول معروف عنه وقد اورده الخبير به مفصلا الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن عيش القرشي ... في ... الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغثاثة فليرجع اليه

هذا وانه لن يذهب عنا الاسف والكمد الذي نجده في انفسنا من جهة قضية الخديوي وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا العصر في حاجة الى مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وامثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده واضرابه الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيغ عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسلمين تعليمها والاخذ بها وتعلمها فيخرجوا بذلك عن قعر الذل وغاية الهوان والصغار التي ألقوا فيها وهم صاغرون وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظره وساءت بذلك هيئته وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء في معارج العز والاعتلاء. فأما نحن فلسنا في حاجة الى امثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطمسة لآثاره، ومجلبة له

عن عقر داره ومحله وقراره ،

اوليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضاحك بها الاعداء ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكاء ، وتسكاب الدماء ، اوليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، اي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتتفطر بها الاكباد وتجود لها المحاجر والاماق بانهار الدماء السائلات ، وتسكب لها مآقي الامطار من المقل الغائرات ، خرجت الممالك من ايمانهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في ايديهم كانهم لاحراك بهم وصاروا في العالم كانهم لعبة تتداولها ايدي الاجانب وتتلاعب بها اكف الاباعد، بماخرجوا عن املاك الاقارب لايحس فيهم شيء من آثار الثروة ولا عندهم ميل الى التجارة والصنعة بل هم زاهدون فيها ، وراغبون عنها، يستقبحون شكلها ومنظرها ويستثقلون محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار والاحتياج الى كل شيء حقير وجليل ، كل ماعون يسير ، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرج للمساجد والصوامع من ارض الافرنج ولا يتخذون من ذلك شيئاً بانفسهم وايديهم ، لم يبق لهم عزة ولا صولة ، ومابقي عندهم امرة ولا دولة ، واما عددهم فهم وان كانوا يبلغون الى الف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من اقطار الدنيا ممن يفتخر هنالك بوجودهم ولا ممن يتفاخر بهم على لسان وليهم وودودهم او ليفرح الرجل بالنظر الى عيونهم واشخاصهم او يسر اخوهم اذا كان يرمق الى عددهم وافرادهم ، فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ويد من رهنت ذمة هذه الامور والذي احسب ان جل السبب في ذلك ليس الا نفارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها واثم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يذرون تلك الاوزار ويجوزون للمسلمين ان يخرجوا عن غمار الذل والصغار ومن ثم تراهم يرعون عن التعاليم النافعة ويردعون الناس عنها لفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم الحديثة ويحولون بينهم وبينها وعلى ابصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يشعرون ان ارتقاء الاوربيين الذي يضرب به المثل اليوم ليس الا من جهة توغلهم في العلوم الجديدة ونبوغهم في الحكم الحديثة وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في

الاصل الى تجارتهم وحرفهم وهي في اوبتها منسوبة الي تناغيهم في هذه العلوم الجديدة النافعة

دع عنك اوربا وانظر الي هذه الامة الحقيرة التي يقال لها أمة جابان افلا يرونها كيف ارتقت في مدة لا تنيف على عدة سنين ولا تعد الا على اتامل الآدميين ارتقاء مبهرا ابهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، فليس انها لم تستكمل لنفسها مدة خمسين سنة وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة وتستحقرها الامم المتمدنة وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود والارتقاء، وقد ادهشت الدنيا بأسرها باعمالها البديعة التي صدرت منها في هذه الازمان وكل واحد يحترمها كل الاحترام وحرمتها مركوزة في طبع كل انسان فماذا الذى قلبها عن حالها القديم، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الرميم؟ ماذلك الا من اجل تناغيها في العلوم والحكم والازهريون على خبرة من حالها ومنهاج ارتقائها ومنوالها وانما الاسف عليهم من اجل انهم لا يحسون انفسهم بهؤلاء، ولا ينظرون في علل تلك الاشياء، ولا يفكرون في اسبابها التي اورثتهم الارتقاع واورثتنا الانحطاط والانخفاض ولوكان عندهم صواب في الرأي وحزم في الرواية ومعرفة صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ولكان كل واحد منهم مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذي أضل الناس كثيرا ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذي هو الصراط المستقيم ويضيء فضاء الارض برحبها ويثور العالم الاسلامي بسمته كلها بشعلة الاسلام ونبراس كلام الله الملك العلام

وليت شعري ماذا الذي علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات البدنية ام نبذ من تلك المراسم الظاهرية أو مطالب عديدة من مسائل النفاس والحيض يعنون بها التعليم الديني لاغير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامة وحاشاهما عن ذلك بل وقد دلانا على ما فيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكمال الربح في الاخلاق والمدنية وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية واوجبا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية

باسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لتلكم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضا آتكم البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا ان الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية والعوائد الملية والقومية وهو الذي اتخذ العلم والعقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ولو لم يكن الازهريون يظنون ظنا باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعبأ بها ولو كفر هذه المطالب ليست بجديرة للعمل في هذه الاعصر والدهور ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذي حجى وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين لما روي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ونهايتهم من الصغار والخذلان ولو كانوا يعلمون ان العلوم العقلية والكونية عين العلوم الدينية لكانت كلية كيمبردج وآكسفورد تحسد الازهر و[illegible] غبطه ما كان يجحدها احد والتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يعدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء [illegible] في هذه الاعصر والازمان

هذا رأيي ورأي معشر الاخوان الذين لهم خبرة بأحوال الدنيا ووقوف على اخبارها والمام بتواريخها واني القاطع بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عداني ان العلماء هم العلة الاصلية لكل هذا الصغار والهوان وتمام تلك النكبة والخذلان وهم موقوفون غدا بين يدي الرحمن ومسئولون من لدنه فليستعدوا للجواب لهم الاصل الاصيل لجل هذه المفاسد وكل تلك الشنائع وانت يا اخي لا تستطيع وان جهدت كل جهدك للمحاماة عن علماء الازهر أن تغسل هذا العار عنهم وتدفع هذه التهمة والنقيصة منهم فانك لا تستطيع ان تكذب الحس والعيان ولا ان تدفع الوقائع التي حدثت في الادهر والازمان لهذه الكلية التي مضت لبنائها الف سنة وتخرج منها مليون بل اضعاف مليون طلبة ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة أفيحق ان يكون نهج التعليم في هذه الكلية بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غداءهم بالذلة وعشاءهم بالمسكنة و يبيتون وهم مخذولون بالمسغبة أو يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج

منها أناس يرتفع بهم منار الدين ويتقد به نار الاسلام ويعلو قدر المسلمين ويهتدي بها المسلمون الى لواحب الصعود والارتقاء ويزيدهم عزة وبهاء ويبوئ لهم ذرائع الاصطفاء والاعتلاء وانما يحزننا أولا انا نجد المسلمين في أي مصر واية بقطعة من بقاع الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلوم واكتساب الحكمة غافلين عنها غير مكترثين بها وثانيا انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة ولواحب الاكتساب متسعة ومناهج التدريس مطروقة متفتحة وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التى هي أقدم كليات العالم يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار الذى تضيع فيه الاعمار ويضاع فيها الفضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هـذا النهج الباطل العاطل العتيق الذي لاينبعث المسلمون به للنهضة ويسلب من أجله مادة التحقيق عن عقولهم الخاوية ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة اصطلحوا على أن يسموه تعليما دينيا وعلى أن يسموا الرجل العارف بما يشتق من الفاظ والرقة والغامض والخفي رجلا عالما ولا غير

هذا واني لست بمتعب مقالي في هـذا الشأن ولا بمطنب في شكايتي من علماء الزمان نظرا الى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤنهم واخبارهم فنحن في غنى عن اطالة الكلام عليها وبمعزل عن إسهاب المقال فيها وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقـدان نفعها للمسلمين وضوح الشمس فى كبد السماء وانما بثي وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدرس الواحد فى الدنيا من قديم الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاسد الملية والمدنية فى الاسلام ولا غرو ولو تقبل الناس آراء المفتي محمد بن عبـده وبادروها بالقبول لكنا نأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والمسكنة وترقب صعودهم الى أعلى قنن الفوز والسعادة ولكن عليكم بمدان لاتيأسوا من روح الله وتجدوا كل الجد في اصلاح المسلمين ، وأحسنوا ان الله لايضيع أجر المحسنين ،

وكتب يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر — وأنا مخلصكم الصدق الوفي

(محسن الملك)

باب المناظرة والمراسلة

الرد على الشيخ بخيت — تابع لما في الجزء السادس

المسائل الدينية

(المسألة الأولى متن الحديث) نص حديث جابر عند ابن ماجه أورده الشيخ بخيت محرفا فأشرنا الى ذلك في تلك الجملة الوجيزة وكان غرضنا من تلك الاشارة الفرق بين عبارة الحديث عنده وهي « الا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه » وعبارته عند روايه (ابن ماجه) وهي « الا أن يقهره بسلطان يخاف سيفه وسوطه » فقوله بسلطان معناه بسلطة فيشمل كل سلطة لكل قوي - وقد اكتفينا بالاشارة لانه لم يكن من غرضنا تفصيل خطأ [illegible] الحديث [illegible] عدم الثقة باستنباطه فلما أراد أن يرد علينا كل ما قلناه [illegible] الكتب التي من شأنها ان تذكر هذا الحديث وكتب بعد ذكر عبارتنا في تصحيح الرواية ما نصه (ص ٣٢)

« ونقول في الرد عليه قد ذكر في البرق الوميض حديث جابر باللفظ الذي ذكرنا وعزوناه في الرسالة اليه وقد ذكره في كنز العمال مطولا ونسبه للبيهقي وفيه ألفاظ لا توجد في البرق وجاء في آخره : ألا لا تؤمن امرأة رجلا ولا يؤمن أعرابي مهاجرا ولا يؤمن فاجر مؤمنا الا أن يقهره سلطان يخاف سيفه وسوطه اه وقد ذكره في منتقى الاخبار باللفظ الذي ذكره المعترض ولعله لقصوره قصر الرواية عليه » اه

ثم ذكر بعد هذه الجملة ان الحديث ذكر في المهذب وشرح الاقناع قال « وذكره ابن ماجه في سننه مطولا » وذكر آخره عنه وفيه « الا أن يقهره بسلطان » ثم ذكر أسماء بعض الفقهاء الذين أوردوه في كتبهم واستنبط من ذلك أن « كل من احتج به في موضع اقتصر منه على موضع حاجته في الاحتجاج وكل ذلك جائز لم يقل بمنعه أحد ولا ضرر في اختلاف الالفاظ مع اتحاد المعنى

ألا ترى ان ابن ماجه قد ذكره في سننه بلفظ والبيهقي قد ذكره بلفظ ومنتقى الاخبار قد ذكره بلفظ ولكن حب الاعتراض على الناس يعمي ويصم نعوذ بالله من ذلك » اهـ

أقول قد أخطأ الشيخ بخيت في هذا المقام من وجوه (أحدها) ان كلامه في رسالة السكورتاه كان في رواية ابن ماجه لحديث جابر لافي الحديث على الاطلاق ورواية ابن ماجه ليس فيها اختلاف وليست كما أورده فهو قد نسب الى ابن ماجه تحريف الحديث أو نسب اليه مالم يروه ولايخرجه من هذه الورطة كون غير ابن ماجه قد رواه باللفظ الذي ذكره ان صح ذلك

(ثانيا) قوله انه عزا حديث جابر الى البرق الوميض غير صحيح فان المتبادر من عبارته في رسالة السكورتاه انه نقل الحديث من سنن ابن ماجه نفسها فانه قال ما نصه : « ومما يدل على انه لا يشترط في السلطان الذي يقلد القضاة ويأذن بالجمعة ان يكون مسلما بل يجوز تقلده من السلطان الكافر ما أخرجه ابن ماجه وغيره عن جابر بن عبد الله قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال » وساق الحديث وذكر في آخره (اهـ) ثم قال في ابتداء كلام هكذا

« ولذا قال في النهاية وغيرها ويجوز التقلد من السلطان الجائر كما يجوز من العادل وذكر في الملتقط والاسلام ليس بشرط فيه أي في السلطان الذي يقلد اهـ كلامهما »

ثم ابتدأ كلاما جديدا هو حكاية قال في آخرها اهمن البرق الوميض : فهل يفهم أحد من ذلك انه نقل حديث ابن ماجه من البرق الوميض ؟؟ كلا بل هو يغالط أو يكتب مالا يريد ثم لايفهم مايكتب

(ثالثها) ان البرق الوميض ليس من كتب الحديث التي يعتمد عليها و يوثق بها فاحتجاجه بنقله لحديث ابن ماجه لاقيمة له . ولعل اقتصاره على نقل الحديث عنه أدل على قلة الاطلاع — ولا نقول على الجهل بالحديث وكتبه — من اقتصارنا على عبارة منتقى الاخبار الذي هو من كتب الحديث المشهورة المعروفة بالضبط وصحة النقل

(رابعها) قوله ان كنز العمال نسب حديثه المطول الى البيهقي يفهم منه انه لم

الشيخ بخيت وأنه أورد الحديث و بين جرح راويه ليعلم انه لايحتج به . ومن نص سنن البيهقي الموافق لنص سنن ابن ماجه في قوله « الا أن يقهره بسلطان » تعلم أن مافي كنز العمال من النقل عنهما محرف

وأما الطبراني فلم يخرج هذا الحديث وانما حديثه خاص بفرضية الجمعة ليس فيها ذكر الامامة ولا القهر بالسلطان فهو لا يعد طريقا يقوى به الحديث فما هذا الغش والتلبيس

المسألة الثالثة — سند الحديث

ذكر الشيخ بخيت عبارتنا في تلك العجالة في كون الحديث منكرا أوموضوعا لقول البخاري في راويه التميمي منكر الحديث وقول وكيع فيه يضع الحديث ثم اننا أخذنا ذلك عن الشوكاني ونقل هو عبارة الشوكاني وفيها ماذكر عن البخاري وعن وكيع ثم قال (ص ٣٤) « ولم يقل الشوكاني ان الحديث منكر أوموضوع كما اجترأ عليه المعترض من نفسه ولا يلزم من الطعن في رجال الحديث الطعن في نفس متن الحديث على ما سيأتي بيانه وقد ذكرنا ماقيل في رجاله لنقف على حقيقة الحال ثم نتبعه بما يتعلق بحال المتن » ثم ساق سند ابن ماجه ونقل بعض ماقيل في رجاله واحدا واحدا ثم قال (ص ٣٨)

« ومما أوضحنا لك في الرجال تعلم ان كلا من محمد بن عبد الله بن نمير والوليد بن بكير ثقة عدل لاطعن فيه وقد روى الوليد وهو ثقة هذا الحديث عن عبد الله بن محمد العدوي ورواه محمد بن عبد الله بن نمير وهو ثقة عن الوليد وقد تابع محمد بن عبد الله العدوي في هذا الحديث عبد الملك بن حبيب وان الطعن فيه غير مسلم ولم يتفقوا عليه وان علي بن زيد قد روى عنه قتادة والسفيانان والحمادان وخلق وكفى بذلك توثيقا وتعديلا وقد خرج له الاربعة والبخاري في الأدب ومسلم في صحيحه وان قرن معه غيره و بالجملة فلم يطعن على أحد من رجال هذا الحديث بالفسق وعدم العدالة وعلى فرض تسليم الطعن فغاية مايقتضيه ضعف هذا الراوي المطعون فيه . وضعف الرواة لايسقط الاحتجاج بالحديث الا اذا عارضه ماهو أقوى فيقدم عليه ولم يوجد مايعارض هذا الحديث بل وجد

من الكتاب والسنة الصحيحة والاجماع مايشهد بصحة معناه ويؤيده كما يأتي وكون الراوي منكر الحديث لايقتضي ان متن الحديث الذي رواه منكر فان المنكر قد اختلفوا فيه فقال في التنقيح هو مالم يروه أصحاب السنن والمسانيد والصحيح ولا يوجد له أثر في كتاب من كتب الامهات كمسند أحمد ومعجم الطبراني ومصنف ابن أبي شيبة وغيرها مع شدة حاجتهم اليه اه »

ثم ذكر أقوالا أخرى في الحديث المنكر لمتأخري المحدثين واعتمد قول التقريب بالتفصيل فيه كالشاذ قال « وقد علمت ان من الشاذ مايكون صحيحا وما يكون حسنا فيكون المنكر كذلك » الخ

أقول كلام الشيخ بخيت هنا يدل على أحد أمرين إما انه لايعرف علم الحديث ولا يوجه الاالمام وانما يراجع الكتب عند الحاجة فيكتب عنهما يلوح له ان يوافق غرضه واما انه يحرف الكلم عن مواضعه ويدلس [illegible] عامدا عالما والأول هو الأظهر ومن الدلائل على ذلك [illegible] من أنواع الخطأ وهي

« ١ » جعل [illegible] بن بكير كمحمد بن عبد الله بن نمير عدلا لا طعن فيه وقد قال الذهبي في الميزان ما رأيت أحدا وثقه غير ابن حبان وقد نسب بعضهم ابن حبان الى التساهل في التعديل وقالوا انه واسع الخطو في باب التوثيق يوثق كثيرا ممن يستحق الجرح وفي تدريب الراوي للسيوطي وفتح المغيث للسخاوي تفصيل في ذلك محصله ان له اصطلاحا خالف فيه غيره منه ان كان يجعل الحسن صحيحا وانه كان يوثق من لم يطعن فيه أحد . ولم يعتد الذهبي قول أبي حاتم فيه (شيخ) توثيقا وكلمة شيخ عند أبي حاتم في المرتبة الثالثة قال في صاحبها « يكتب حديثه وينظر فيه » أي يكتب لاجل البحث عنه فهل يقال في مثل هذا انه ثقة كمحمد ابن عبد الله بن نمير الذي روى عنه الشيخان ؟؟

« ٢ » قوله ان الطعن في عبد الملك بن حبيب غير مسلم هو حكاية لقول المقري المؤرخ صاحب نفح الطيب وهو ليس من أهل الجرح والتعديل وقوله هذا لايعتد به فان الجرح المفسر مقدم على التعديل لاسيما اذا أيد بعض أهل الجرح فيه بعضا ، وألفاظ الجرح فيه كثيرة منها مانقله الشيخ بخيت عن الشوكاني

وعن ابن لباب ومنها ما ذكره الذهبي في الميزان عن ابن حزم انه قال فيه ليس بثقة وقال روايته ساقطة مطروحة . وعن الحافظ أبي بكر بن سيد الناس انه قال فيه انه صحفي لايدري الحديث ، وضعفه غير واحد ثم قال ـــ وبعضهم اتهمه بالكذب وقال ابن حزم روايته ساقطة مطروحة أقول فاذا أجللناه عن الكذب فهل نجله عن القول بالجهل بالحديث الذي أيد كلام ابن لباب فيه قول الحافظ أبي بكر انه صحفي لايدري الحديث ، والحافظ الذهبي نفسه قد وصفه بذلك مع اعترافه بعلمه فانه قال فيه « كثير الوهم صحفي » ويؤيد هذا مانقله بحثت من مسألة القراءة والجواب الذي نقله عن المقري فيها ليس بشيء . فان الذين يقولون بالاجازة لايعدون من أجيز بقراءة من الكتب (أي جولق) لم يقرأها ولم تقرأ عليه راويا لها ضابطا لما فيها بحيث يحتج بمتابعته في تقوية منكر الحديث . فليت شعري هل فهم الشيخ بحثت هذا فأمضى فيه أم لم يفهمه

(٣) قوله ان علي بن زيد قد روى عنه فلان وفلان وكفى بذلك توثيقا مردود بأن رواية من ذكر عنه لاتدل على عدم الطعن فيه بل الطعن فيه منقول فقد قال الامام أحمد فيه هو ضعيف وقال البخاري وأبو حاتم لايحتج به ولا ينافي ذلك رواية البخاري عنه في الادب المفرد فانه يروي فيه عن الضعفاء ولو لم يكن ضعيفا عنده لروى عنه في صحيحه . وكان ابن عيينة يضعفه وقال حماد بن زيد أخبرنا علي بن زيد وكان يقلب الاحاديث وقال الفلاس كان يحيى القطان يتقي الحديث عن علي بن زيد . وطعن آخرون فيه فراجع مع هذا سائر ماقيل فيه في ميزان الاعتدال

(٤) قوله : وبالجملة فلم يطعن على أحد من رجال هذا الحديث بالفسق وعدم العدالة : مما يتعجب منه فان الطعن بالفسق ليس من ألفاظ جرح الرواة الدال على عدم الاحتجاج برواياتهم وكأن الشيخ بحثت ظن ان شأن المحدثين في الرواة كقضاة المحكمة الشرعية في الشهود بل كشأن عوام العامة في طعن بعضهم ببعض فان كان هذا ظنه فهو إثم فانهم رضي الله عنهم ما كانوا يقولون ان فلانا لاتقبل روايته لانه فاسق أو زان أو مرتش بل جعلوا للجرح مراتب ليس

فيها شيء من قبيل ألقاب السباب الا لفظ الكذب هو يذكره الجمهور للضرورة ومنهم من يتنزه عنه كالبخاري وقلما يصرحون بفسق الفاسق وكل ما نقلنا منهم من ألفاظ الجرح في رواة هذا الحديث معناه ان المجروح ليس عدلا اذ الجرح يقابل التعديل ولا حاجة الى التصريح بكلمة «غير عدل» وما في معناه. فليبحث في كتب هذا الفن عن مراتب الجرح يتبين له ذلك ويعلم أن قوله لم يطعن على أحد من رجال هذا الحديث الخ لا يفيده شيئا في تقوية سنده وجعله مما يحتج به. وقد علم القراء ما قيل في غير محمد بن عبد الله بن نمير منهم وحسبهم أن البخاري قال في راوي الحديث أنه منكر الحديث ومن اصطلاحه أن من قال فيه ذلك لا تحل الرواية عنه فهل يقول الشيخ بخيت إن من لا تحل الرواية عنه ثقة عدل يحتج بحديثه ؟

(٥) قوله ضعف الرواة لا يسقط الاحتجاج بالحديث الخ خطأ يأتي بيانه بعد

(٦) قوله انهم لم يتفقوا على الطعن بعبد الملك لا يفيد على تقدير صحته الا اذا كان يشترط في الاعتداد بالجرح والاتفاق عليه وليس الأمر كذلك بل الجرح مقدم على التعديل مطلقا أو بشرط كونه مفسرا

(٧) قوله «وكون الراوي منكر الحديث لا يقتضي أن متن الحديث منكر» لا يفيده بل يقوي الحجة عليه الا اذا صح قوله إن ضعف الرواة للحديث لا يسقط الاحتجاج به ولن يصح فان كون الراوي منكر الحديث جرح له يمنع الاحتجاج بحديثه عند البخاري وقد يكون الحديث منكرا وهو مما يحتج به على القول بأنه بمعنى الشاذ وهو ما اعتمده وان كان غير معتمد في نفسه وانما المعتمد من أقوال كثيرة ان بين المنكر والشاذ عموما وخصوصا من وجه يجتمعان في كون الراوي قد انفرد برواية كل منهما وينفرد الشاذ بكون راويه ثقة والمنكر بكون راويه ضعيفا (انظر كشاف اصطلاحات الفنون) وانما توهم من توهم ان الشاذ والمنكر واحد من اختلاف القوم في الاصطلاحات. وانما قلنا في تلك العجالة ان الحديث منكر أو موضوع بناء على انفراد محمد بن عبد الله التميمي به وعدم الاعتداد بمتابعة عبد الملك بن حبيب له لأنه ليس من أهل الرواية وقد نصوا على أن التميمي هذا

لايتابع واذا تفرد منكر الحديث أو من يضعه بحديث كان متن الحديث منكرا أو موضوعا . فاذا أثبت الشيخ بخيت أن لهذا الحديث روايات أخرى يكون قولنا ذاك خطأ سببه عدم اطلاعنا على تلك الروايات وأين هي ومن هم رجالها؟

آية من آيات دقة الشيخ بخيت في علم الحديث

قال في آخر (ص ٤٠) بعد ما تقدم «وقول ابن حبان لايجوز الاحتجاج به شهادة نفي قال في الرحمة المرسلة للحافظ عبد الحي الكتاني الفاسي وقد قال الحافظ ابن حجر في القول المسدد في الذب عن مسند أحمد في حديث قال ابن حبان فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقله ولا عمر ولا سعيد ولا الزهري ما نصه قول ابن حبان شهادة نفي صدرت من غير استقراء تام على ما سنبينه فهي مردودة اه وقال الذهبي الكلام في الرجال لايجوز الا لتام المعرفة تام الورع اه فقول الشوكاني تالف لايقبل وقول وكيع يضع الحديث لايقتضي ان هذا المتن موضوع ولو كان موضوعا ما رواه أولئك الاعلام ويسكتون عليه ولا يبينون ذلك وقد علمت متابعة عبد الملك بن حبيب وعدم تفرد الطعن فيه وقول ابن حجر واهي الحديث وقول ابن عبد البر هذا الحديث واهي الاسناد وقول البيهقي لايتابع في حديثه كل ذلك لايقتضي كون هذا المتن واهيا قال الحافظ عبد الحي الفاسي في الرحمة المرسلة لان تعدد الطرق مانع من كون الحديث واهيا شديد الضعف لان الضعف اذا حصل له أدنى انتعاش واستئناس أحدث فيه قوة ومعلوم أن ضعيفين يغلبان قويا » اه

أقول قد علم القراء ان هذا الحديث لم يروا الا من طريق محمد بن عبد الله العدوي التميمي الذي تكرر ذكره والشيخ بخيت ينقل كل هذه المطاعن فيه وهي أشد ألفاظ الجرح عند المحدثين ثم لايراها جارحة له مسقطة لعدالته مانعة من الاحتجاج بحديثه . ومن دقيق علمه انه لايفرق بين قولهم فلان لم يحتج به وقولهم فلان لم يقل كذا اذ جعل الاول كالثاني شهادة نفي ولعله عند ما يعود الى عبارته هذه يستحي منها واذا علم ان تلاميذه رأوها وفهموها يستحي أن يظهر بينهم بصفة المعلم اذ لا أظن انه يخفى عليهم أن قول أهل الجرح والتعديل فلان لايجوز

الاحتجاج به معناه أنه غير عدل فعبارة ابن حبان بمعنى قول البخاري منكر الحديث أي لاتحل الرواية عنه أو هذه أشد واما قولهم ان فلانا لم يقل كذا فلا معنى له الا أن القائل لم يعلم بأنه قال لعدم استقرائه

وهل علمت أيها القارئ من هو الحافظ عبد الحي الكتاني القاسي الذى يقتبس الشيخ بخيت من علمه بالحديث ويحتج بقوله ورأيه ؟ هو الشيخ الكتاني المغربي الذى مر على القاهرة في العام الماضي والرحمة المرسلة رسالة له حاول فيها تحسين حديث البسملة « كل أمر ذي بال » وقد جعله الشيخ بخيت حافظا ليحتج بكلامه ولا فخر له في ذلك فان الذي جعله من الحفاظ لا يعرف علوم الحديث

وجملة القول في سند هذا الحديث أن الشيخ بخيتا ادعى انه لم يطعن أحد في رجال سنده عند ابن ماجه بما يسقط عدالتها وانه مروي من عدة طرق يقوي بعضها بعضا وان الاعلام رواه وسكتوا عليه وان متابعة عبد الملك بن حبيب التميمي عليه معتبرة وكل هذه الدعاوى باطلة كما علم مما تقدم على اختصاره

أصول الاسلام

﴿ الكتاب ، السنة ، الاجماع ، القياس ﴾

جاءنا من الشيخ طه البشري الاستاذ المدرس بالجامع الازهر تحت هذا العنوان ما يأتي

الى الدكتور النطاسي محمد توفيق أفندي صدقي

بعد ان نحمد الله اليك ونصلي ونسلم على نبيه المجتبى ورسوله المصطفى وآله وصحبه فلقد قرأنا مقالتك التى ذهبت فيها الى ان الاسلام هو القرآن وحده ونشدت من العلماء من يساجلك القول ويبادلك الحجة حتى ينتهي البحث الى الحق الذى لاشبهة فيه فاذا كنت مصيبا تابعك وأيدك أو مخطئا خالفك وأرشدك واني مناظرك ان شاء الله تعالى بما لا نرى فيه حرجا عليك من الزامك بما قال زيد ورأى خالد لكن بالكتاب نفسه أو بما رأيت فيه حجة لنفسك من غيره ملتزما جهد المستطيع حد المناظرة الصحيحة حتى تبلغ منزلة الحق الذى ننشده جميعا فاما نهتدي الى وفاق، والا فقد بلغ أحدنا من مناظره عذرا، وكثيرا ما ابتدأت

المناظرة بالمهاترة وانتهت بشلاح ،والحق ذاهب بينهما ادراج الرياح، ولاحول ولا قوة الا بالله ، نسأل الله تعالى ان يعافينا واياك من هذا البلاء

اعلم وفقنا الله واياك ان أصول الاسلام الاربعة الكتاب والسنة والاجماع والقياس

اما الكتاب فلا تنازع فيه بل نراك اتخذته وحده التكأة التي تستند في أمر دينك اليها والحجة التي تنافح عن نفسك فيماذهبت بها

واما السنة فلانا نثبتها بالكتاب نفسه فهي منه تستمد، وعليه تستند،وعنه تصدر،واليه ترجع،قال الله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) وليس هناك من معنى لتبين الكتاب غير تفصيل مجمله،وتفسير مشكله ،وغير ذلك من مسائل الدين التي لم يتناولها الكتاب بالنص، ولم يبسط لها بالبيان، ومثله (وماأرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وقال تعالى(كماأرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) الآية فقال و يعلمكم الكتاب ولو كان المراد مجرد تبليغه لكفى بقول يتلو عليكم آياتنا ولا يذهب عنك ان التعليم غير الاداء والتبليغ،ثم عطف عليها بالحكمة ،وعطفها على الكتاب يقتضي انها هنا شيء آخر،وليس هناك غير السنة وقال تعالى في مواضع كثيرة (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)وطاعة الله لاشك بالرجوع الى كتابه، وطاعة الرسول بالرجوع الى سنته ،ولو كان المراد الكتاب وحده لما كان ثمت داع للتكرار، وقال تعالى(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يحل لهم الطيبات ويحرم عليه الخبائث) الآية فنص في هذه الآية الكريمة على الاخذ بما يحل الرسول والتحرج عما يحظر مطلقا ، وقد ثبت ان السنة اباحت كثيرا وحظرت كثيرا بدون أي نص أواشارة خاصة من الكتاب ومع ذلك يجب الاخذ بكل ماجاءت به لقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقد صرح الكتاب العزيز بان كل ماأوجب الرسول وأمر ،أو نهى وحظر،انما هو من الله تعالى يجب اتباعه ولا يجوز اجتنابه ، لقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وقد أكد سبحانه

وتعالى على الناس في طاعة الرسول وشدد في مواضع كثيرة من القرآن العظيم بالترغيب في اتباعه ، ووعد العاملين بأمره بعد ان قرن طاعته بطاعته في قوله تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) و بتخويف المخالفين لامره والمتجافين عن حكمه بقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب يوم أليم) فمخالفة الرسول ولا ريب مخالفة صريحة لامر الكتاب الصريح

وقد استدللت على أن الاسلام هو القرآن وحده بقوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وعلى تسليم ان المراد بالكتاب هنا هو القرآن ، فان أردت ان القرآن لم يفرط في شيء من مسائل الشريعة بطريق النص فلا نستطيع ان نوافقك على هذا احتراما لمكان الكتاب الكريم من الثقة والصدق ، فان القرآن لم يتناول بطريق النص من مسائل الشريعة الا يسيرا ، وان أردت ان الكتاب لم يفرط في شيء من الشريعة على سبيل الاجمال قلنا نعم فان القرآن لم الفرط في شيء من كليات الشريعة وأنت خبير ان ذكرها مجملة ليس كافيا في استنباط المجتهد مايقوم به العبادة و تحرر المعاملة ، على انا نقول ان القرآن لم يفرط في شيء من كليات الشريعة وجزئياتها فان مالم ينص عليه الكتاب منها أمر باتباع الرسول فيه ، فكل مسائل الشريعة على هذا من الكتاب اما مباشرة، واما باتباع مابينه الرسول الامين

﴿ عصمة السنة الصحيحة و نها من الله قطعاً ﴾

لايخفى عليك مخالف في ان الرسول معصوم ، وان كل مايجري على لسانه أو أو يبدو من عمله انما هو بالوحي السماوي أو الالهام الآلهي الصادق ، وما كان الرسول أن يشرع شرعا يتعبد الناس به من عند نفسه (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) فأمر الرسول لايختلف عن أمر القرآن وكلاهما معصوم، فلا مجال ثمت لسؤال بأنه - هل يفرض علينا الرسول فرضا لم يفرضه الكتاب فان الكتاب والرسول لايفرضان شيئا (ليس لك من الامر شيء) وانما الذي يفرض هو الله الحكيم ومظهر هذا الفرض اما ان يجري على لسان النبي العظيم ، أو يتجلى

في لفظ الكتاب الكريم ، وليس الامر بطاعتها الا أمرا بطاعة الله (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) الآية (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فالرسول عليه السلام هو الواسطة التي تنقل حكم الله العظيم قرآنا كان أو غير قرآن ، والقول «نعوذ بالله» بعدم حجية الرسول قول بالاولى بعدم حجية الكتاب فانا لم نأخذ الكتاب الا منه ، ولم نتلقه الا عنه ، وهو أمين الله على وحيه ، ومبلغه الى خلقه ، وحجته على عباده

السنة اجمالا مقطوع بها كالكتاب — لاشك في أن الكتاب مقطوع به ولم يكن هذا القطع الا من طريقه الذي أصل بنائه وهو التواتر ، والسنة بالجملة جاءتنا من هذا الطريق بعينه ، لان اجماع الامة من المبدإ الى الآن منعقد على صحة السنة اجمالا عن رسول الله ، وانها أصل من أصول الدين كالكتاب واذا كان طريق السنة هو بعينه طريق الكتاب لاجرم كان مقطوعا بها اجمالا كالقطع بالكتاب تفصيلا وان السنة بحسب الاجمال لا هي الشخص فسيأتي عنها بعض التفصيل في مراتب السنة الصحيحة

عصمة الشريعة كلها

لنا في اثبات هذه الدعوى وجهان — الاول الدلائل الدالة على ذلك من الكتاب مثل قوله تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره) ونور الله شرعه وقوله تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ولو فسرنا الذكر بالشريعة كلها كتابها وسنتها لكان الامر ظاهرا ، ولو قصرناه تفسيره على الكتاب لجاءت السنة بطريق اللزوم لما علمت من أنها كافلة لتفصيل مجمله ، وتفسير مشكله ، ولا معنى لحفظ كليات الشريعة ومجملاتها دون جزئياتها ومفصلاتها ، التي هي مناط التكاليف وعليها تدور الاحكام

— والثاني الاعتبار الوجودي الواقع من زمن الرسول صلى الله عليه وسلم الى الآن فان الله سبحانه كما قيض للكتاب العدد الجم من ثقاة الحفظة بحيث لو زيد فيه حرف واحد لعرفه الآلاف من القارئين ، كذلك أقام لكل علم يتوقف عليه فهم الشريعة من الناس من أدى بعملهم هذا الفرض أحسن الأداء

فمنهم من استنفد السنين الطوال في حفظ اللغات والتسميات الموضوعة على لسان العرب حتى قرروا لغات الشريعة الغراء من القرآن والحديث ، وهذا الباب الاول من أبواب فقه الشريعة التي أوحاها الله الى رسوله على لسان العرب ، ومنهم من جد في البحث عن تصاريف هذه اللغات في النطق بهـا رفعا ونصبا وابدالا وقلبا واتباعا وقطعا وافرادا وجمعا الى غير ذلك من وجوه تصاريفها الافراد والتركيب ، ومنهم من قصر عمره — وهو طويل — على البحث عن الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل الثقة والعدالة من النقلة حتى ميزوا الصحيح من السقيم ، وعرفوا التواريخ وصحة الدعاوي في أخذ فلان عن فلان حتى استقر الثابت المعمول به من الحديث الشريف فلا محل لدعوى «حصول التلاعب والفساد» في حديث الرسول الكريم ، كيف وقد علمت ان السنة شطر الدين ، والذين تلقوا الكتاب بطريق التواتر القطعي ، وان كان نقلة الكتاب العزيز هم العدول الضابطين الامناء الذين نقلوا الحديث ورواته ان لم يكونوا بأعيانهم فانهم لا يقلون عنهم في العدالة والحفظ والضبط والثقة والامانة فمن طعن في صحة السنة فقد طعن في صحة الكتاب أيضاً

وقد علمت صحة الكتاب وفساد سند السنة بتعاليل نرى من الحتم علينا الالمام بها جملة ، ونعقبها بما يكفي لدفعها

(١) كون متن القرآن مقطوعا به لانه منقول عن النبي باللفظ بدون زيادة ولا نقصان (٢) كتابة القرآن في عصر النبي عليه السلام بأمره (٣) عدم كتابة شيء من الاحاديث الا بعد عهده بمدة كافية في حصول التلاعب والفساد الذي حصل (٤) عدم ارادة النبي لان يبلغ عنه للعالمين شيء بالكتابة سوى القرآن المتكفل بحفظه في قوله تعالى (انا نحن نزلنا الذكر الآية) ولو كان غير القرآن ضروريا في الدين لامر النبي بتقييده كتابة ، ولتكفل الله بحفظه ، ولما جاز لاحد روايته على حسب ما أداه اليه فهمه ،

ونقول — (١) اما القطع بالقرآن كله فلا شك فيه ، ولكن ليس بما ادعيت

من نقله عن النبي باللفظ بدون زيادة ولا نقصان فان هـذا ليس كافيا في القطع بل هو انما تحقق بالتواتر اللفظي ، وهو الذي استفيد منه عدم الزيادة والنقصان ، على انك ان عددت مثل ذلك موجبا للقطع يلزمك ان تعد السنة الصحيحة مقطوعا بها — بحسب الشخص — كلها لانها جاءتنا أيضا بلا زيادة ولا نقصان . بل ولعد كل خبر ورد من أي طريق بلا زيادة ولا نقصان مقطوعا به وهو غير مسلم

(٢) وأما كتابة القرآن بأمر النبي عليه السـلام في عصره فلا نزاع فيها أيضا ، ولـكن العمدة في القطع به انما هي بالتواتر كما قدمنا بحفظه في صدور جماعة من الصحابة غير ممكن تواطؤهم على الـكذب والذين يلونهم كذلك ثم الذين يلونهم الى عصرنا هذا ، على اننا لانهمل ما للكتابة من التوكيد وفوائد أخرى كثيرة مثل ترتيب الآيات بعضها الى بعض باشارة جبريل عليه السـلام ، فان القرآن نزل نجوما على حسب مقتضيات الوقائع لا بهذا الترتيب ، ولا يعزب عنك ان ماسطره كتاب الرحمن من القرآن ليس بين أيدينا منه الآن ؛ بل نحن لم نقطع بحصول الكتابة في عصر النبي عليه السلام الا بالتواتر اللفظي المسلسل الى ذلك العهد الشريف ، وهناك تستوي الكتابة وعدمها في صحة النقل ما دام مصدرها موجودا وهو النبي الكريم المبلغ لآيات الكتاب الحكيم ، فاذا كنت تعد الكتابة التي سجلت في عهده عليه السلام هي الحجة وحدها في القطع بالقرآن ، فقد شككت في القرآن المتلو طول هذا الزمان في كل بلاد الاسـلام ، فاننا ومن قبلنا الى قريب من ذلك العهد الشريف لم نحظ برؤية شيء من هذا الاثر الكريم !!! واذا اعتبرت القطع بالنقل عن ذلك الاثر قلنا لانسلم الا ان هذا موجب للقطع بصحة القرآن اذ ان الكتابة نفسها لادليل موجب للقطع بانها من الرسول ، بل هي في اثبات صحتها ذاتها محتاجة الى التواتر اللفظي المؤيد يقينا لصحة العزو فعلمت ان المدار في القطع بالقرآن هو التواتر اللفظي لاغيره وقد نقلت الينا السنة اجمالا من هذا الطريق ، ولا يذهب عنك ان العرب كانت أمة أمية أكبر اعتمادها في حفظ مأثورها كان على الصدور لا السطور .

(٣) وأما عدم كتابة شيء من الحديث في عهـده فهو لا يفيد دعوى

التلاعب والفساد ، بل ربما كان عدم الكتابة مما يبالغ بالنفس فى تأكيد صحة أسانيد السنة ، اذ رواية الحديث الواحد بطرق متعددة ، وبأسانيد مختلفة مع حفظ وسطه وطرفيه أكبر مدفع لدعوى التلاعب والفساد ، ثم انك قلت «من التلاعب والفساد ما قد حصل » أترمي بذلك السنة الصحيحة المعتد بها، والمعتمد عليها ، المسطورة فى مثل صحيح مسلم والبخاري وموطأ مالك وأمثالها أجمعت الامة على صحته ، أو غير ذلك مما نص على ضعفه أو وضعه ، ان كان الاول فقد علمت فيما القوم اجماع على صحته في الجملة ومنه القرآن ولا تقول بهذا ، وان كان الثاني فأنا لا نعول منه على شيء.

(٤) وأما دعوى «عدم ارادة النبي عليه السلام لان يبلغ عنه العالمين شيء بالكتابة سوى القرآن » في هذه المقدمة — أو شبه المقدمة — نظر، على اننا لو تنزلنا بتسليمها لما انتجت النتيجة التي تريدها وهي انه لم يرد ان يبلغ عنه شيء أصلا سوى القرآن (عليما) والنبي عليه الصلاة والسلام أرسل كثيرا من الرسل الى الجهات المختلفة [illegible] يقتطع لهم من صحف الكتاب ما يكون [illegible] في دعوتهم الى الاسلام أولا، ويعلمهم أحكامه ثانيا، ولو كان الامر كما رأيت ما صح تبليغ أولئك السفراء الى الدعوة، ولا اعتد باقامتهم بين الناس أحكام الشريعة، نعم يقال انه كان يكتفي بمحفوظهم من الكتاب، ونقول انه كان كذلك يكتفي بمحفوظهم من السنة ، وان قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم أصحب وفوده الى الملوك بكتابات مرقومة، ورسائل مسطورة، قلنا ان ذلك لم يخرج عن الايذان بصحة بعثة أولئك الرسل عن النبي عليه السلام، وكل ما فيها لا يجاوز الالماع الى الغرض الذي سرحهم اليه ، وأما كونه لم يترك أثرا من الدين مسطورا الا الكتاب العزيز فقد علمت ان لا يترتب عليه شيء مما نحن فيه ولو كان الامر كما ترى فبم كان يتعلم الناس كيفيات الصلاة مثلا وهي القاعدة الثانية من قواعد الاسلام ؟ .

ترى اننا بعد هذا في غنى من التماس العلل لكتابة القرآن دون السنة فنحن نقيلك من أصل العلة التي أوردتها لذلك ونكفيك مؤونة ردها ولكنا

تناقشك في هذا الرد

قلت «فان قيل ان النبي لم يأمر بكتابة كلامه لئلا يلتبس بكلام الله قلت وكيف ذلك والقرآن معجز بنظمه ولا يمكن لبشر الاتيان بمثله» ونقول ان اعجاز نظمه لا يتحقق بقدر الآية الصغيرة مثلا ، فلا مانع اذن بأن يلتبس هذا القدر من الكتاب بالسنة ، أو مثله من السنة بالكتاب ، وأنت أوعى وأرشد من ان تنبه الى المصاب بخروج آية بل آيات متفرقات من القرآن عنه ، ودخول أمثالها فيه وليست منه ، على ان عدم التباس القرآن بغيره انما يتحقق في حق المرء الخبير باسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ، ولكنه غير متحقق أصلا في جانب غيره أعجميا كان أو من هؤلاء المستعربين

على اننا نرجع الى أصل الموضوع فنقول ان وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب انما هي التبليغ من أي طريق كان وقد قال (الا فليبلغ الشاهد الغائب) وذلك غير خصوص بالكتاب بل يعم ما يسمى قرآنا كان أو سنة وقد قال تخصيصا لها (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)

أما جواز رواية الحديث بحسب ما يؤديه الفهم فما لم نسمه الا منك ، فان المقرر المعروف ان فهم الحديث في ذاته تابع لروايته ، لا ان روايته تابعة لفهمه ، واذا كانت روايات الحديث مسوقة حسبما تبلغ الافهام فاحر بها ان لا تساق أصلا . وكيف يجول الفكر ويضطرب الفهم في شيء قبل وروده وتقرره أولا ؟ واذا أردت بذلك وقوع اختلاف الافهام في بعض الاحاديث فذلك ضروري كاختلافها في بعض آيات الكتاب سواء بسواء . أما رواية الحديث بمعناه — اذا غاب عن الراوي لفظه — فجائز لان المراد منه هو حكمه لا التحدي بنظمه ، أو التعبد بلفظه . فلا بأس إذن بروايته بأي لفظ يؤدي معناه المراد

فساد دعوى الاستنباط من الكتاب وحده

ان المستنبط من الكتاب معنيا صح فهمه ، وغزر علمه ، لا بد وان تعترضه مواضع لا يرى الكتاب مستغنيا في تقرير الحكم فيها بنفسه ، ولا مفصحا بما يكون

بُلغةَ المهتدي وكفاية الطالب، كأن يرى ثَمت لفظا يتبادل افرادا مختلفة الحدود على سبيل البدل لغـة كالقرء في قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) فانه مشترك لغة بين معنيين متناقضين (الحيض والطهر) وهنا لا يسعه الا ترجيح أحدهما بمرجح خارجي والا لزم اما التوقف أو التعسف بالترجيح بلا مرجح ،وقد رجح الحيض أبو حنيفة بما صح عنده من قوله عليه السلام (طلاق الامة ثنتان وعـدتها حيضتان) فانه يدل على ان عدة الحرة ثلاث حيض لاثلاثة اطهار . وكأن يرى المجتهد أيضا من لفظ الـكتاب ماازدحمت فيه المعاني واشتبه المراد به اشتباها لا يدرك بنفس العبارة بل بالرجوع الى شيء آخر كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فان الصلاة في اللغة الدعاء . والزكاة النماء . فأي دعاء وأي نماء أريد في الـكتاب ؟ لابد من تعيين المراد بشيء آخر ولقـد عينه النبي وبينه بيانا شافيا تصديقا لقوله تعالى (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم) فالمستنبط من الـكتاب لما ذكر فيه نفسه من الاحكام (الا ما كان نصا لم يسعه تبيين المراد منه الا بالسنة وهذا فوق الكثير فكيف بما لم نؤمر به في الـكتاب مما انعقد الاجماع على وجوبه كواجبات الاحرام ونحوها ؟ ؟ ؟ بهـذا تعلم ان الاستنباط من الـكتاب وحده . والتفني به في كل أحكام الدين مستحيل

﴿ مراتب السنة الصحيحة ﴾

أثبتنا ان السنة بالجملة أصل من أصول الدين كالكتاب وأنها بهذا الوصف نقلت الينا نقلا متواترا لاشبهة فيـه ، أما هي بحسب الشخص فمنها المتواتر وهو (مارواه جماعة لا يتوهم تواطؤهم على الـكذب ويدوم هذا الحد فيكون آخره كأوله وأوسطه كطرفيه) وهو موجب اليقين كالعيان علما ضروريا فهو كالـكتاب فى صحة متنه، وصدق عزوه، بحيث يكفر منكره قطعا لأنه جحود المستيقن بأنه من الله — ومنها المشهور (وهو ما كان آحاديا في الاصل ثم اشتهر شهرة مستفيضة) ومنها الصحيح وهو (ماروراه العدول الضباط الحفاظ من غير شـذوذ ولا علة) وغير ذلك من أقسام السنة الصحيحة كثير. واذا كان القاتل يقاد منه بسفك دمه فى عرف الشرائع وما أدراك بحرمة الدم) بمجرد شهادة عدلين الايجب العمل

في حكم شرعي بشهادة اثنين أو أكثر من العدول الثقاة الاوفياء من صحابة رسول الله وتابعيهم . بل لو شئت لأوردنا لك ماقال الشافعي حجة للنفس في العمل بخبر الواحد، بل لأوردنا ماقال الله تعالى حجة علينا في ذلك حكم الله بين السنة والكتاب — حيث قد ثبت أن السنة الصحيحة شرع من الله تعالى ، متعبد بها فما كان عبادة ومعتقد بحكمها فما كان معاملة فهي لا تناقض الكتاب مطلقا ولا دليل هناك على دعوى « وقوع التضارب والاختلاف » بين ماورد من الاحاديث الصحيحة المعمول بها في شرع الله القويم . لأن منشأ هذا التضارب المدعى لايخلو اما ان يكون من الاصل أو النقل أما من الاصل فمستحيل لأنك ولا شك تعترف معنا بوجوب الصدق والفطنة والعصمة لجميع الانبياء وليس بشيء من هذه الواجبات ان يحدث النبي في شرع الله بالتضارب المتناقض بل هذا والعياذ بالله تعالى كذب لايجوز لمسلم ان يرمي به نبيا معصوما وأما من حيث النقل فقد بينا لك منه وجه الحجة وقلنا ان نقلة السنة هم العدول الثقاة الخ . وليس « [illegible] المجتهدين [illegible] مدعاة الى وقوع التضارب والاختلاف فيها » [illegible] أدل الى [illegible] [illegible] قراءة شيء من تاريخ أولئك الاخيار العاملين الذين تصرمت أعمارهم في هذا السبيل اذ كان يمضي الواحد منهم الشهر والشهرين والاكثر متنقلا بين الاقطار والاصقاع لنقل البدر بين منازله التماسا لتحقيق حديث واحد من أفواه الثقاة الامناء، ولو انه ظفر به من طريقه بعد طول الجهد ثم اختلج في نفسه أقل شبهة من أحد رواته نفض يديه منه ، وانقلب الى أهله خاويا من ذلك الحديث وفاضه . واليك كثيرا من هؤلاء كالبخاري ومسلم ومالك والشافعي واضرابهم الذين هم الحجة في نقل الحديث الصحيح المعتد به ، والمعول عليه ، وقولك بعد « ان المجتهدين تحققوا ان أكثر الاحاديث موضوعات » هو حجة لنا أيضا لان تمييزهم للموضوع والضعيف تمييز — ولو بطريق اللزوم — لغيره وهو الصحيح - قلت « المجتهدون » وهم اما الصحابة الذين تلقوا الاحاديث بآذانهم عن فمه الشريف بلا واسطة والحديث في حق هؤلاء لايختلف الى صحيح وموضوع وضعيف لان هذه الفروق انما هي راجعة الى قوة السند وضعفه ولا يكون هذا في حال تسمعه من الرسول

الكريم فان الحديث كله في حق سامعه منه عليه السلام صحيح مقطوع المتن كالقرآن واما غير هؤلاء ممن لم يتلق الحديث الكريم الا بالواسطة وهذه الواسطة اما ان تكون موجبة لليقين كما اذا كانت التواتر أو الظن بالخبر كما اذا كانت غيره من الطرق المعتبرة التي أقلها موجب أيضا للعمل وان لم يكن موجبا لليقين اذ التكليف باليقين تكليف بما لا يطاق أو موجب للحرج على الاقل وهو مدفوع بقوله تعالى (ما جعل عليكم في الدين من حرج) بل المجتهد ليس مكلفا بما اذا كانت الاحكام غير مقطوعة المتون — كما في الاخبار الآحادية — الا بالبحث والتنقيب والعمل بالاقرب الى يقينه وهو الارجح في ظنه والاخبار الآحادية الصحيحة تبلغ ولا شك هذا المقدار فالعمل بها على هذا واجب وأيضا كون بعض أحكام الاحاديث ظنية — لان سندها ليس الا مفيدا للظن — لا يقدح في وجوب العمل بها كما لا يقدح في وجوب العمل بعض أحكام الكتاب نفسه التي دلالتها ظنية — وان كانت مقطوعة المتن — كما بينا — الا المجتهد الذي يؤديه اليه مبلغ علمه وفهمه ، فالقول بأن المجتهدين كلهم على حق ليس قولا باجتماع النقيضين بل المراد ان الحق على فرض كونه واحدا دائر بينهم ، وتعيينه في جانب واحد دون الباقين تعسف ، بل المراد ان كل مجتهد بحث عن الحق بما في وسعه حتى اهتدى الى النقطة التي يلزمه اتباعها دون غيرها ، وهي التي يقال انها الحق بالنسبة له ، والذي لا يجوز له التحول عنه ، بل الذي خرج بلوغه من عهدة التكليف ، فلا بأس اذن بالقول بأنهم جميعا على الحق من هذا الوجه

وليس ثمت تعارض في السنة الصحيحة — كما قلنا — لا للكتاب ولا لبعضها البعض ، فان الوارد فيها اما مفصل لما أجمل في الكتاب أو مظهر لما خفي أو غير ذلك مما يحويه معنى التفصيل والبيان ، واما ما يخالف ظاهره منها الكتاب فكما يرد في كثير من الآيات يخالف بعضه ظاهر بعض فمؤول فيه حتى يطابق النص الكريم وسواء أخذنا بقول القائلين بنسخ السنة الصحيحة للكتاب اذا صح التعارض وامتنع التطابق أو ذهبنا مع الذاهبين الى انه لا شيء من السنة بناسخ للكتاب لانه لا يقع بينهما التعارض بالفعل أصلا ، فلا تعارض هناك مطلقا

بين السنة والكتاب ، اما على الثاني فظاهر واما على الاول ففرق ما بين النسخ وهو الغاء حكم بآخر كما في آيتي العدة ، والتعارض يبقاء الحكمين المتناقضين جميعاً ، ولا قائل به من هؤلاء أو أولئك

وكذلك يقال فيما يرد من الاحاديث مخالفا بعضه لظاهر بعض أي انه يتأول في أحدهما حتى يطابق الآخر ، أو يكون بعضه ناسخا لبعض اذا تعارضا ولم يمكن التطابق . فاختلاف المجتهدين راجع اما الى الاختلاف في الفهم وذلك فيما كانت دلالته على الحكم ظنية وهذا يستوي فيه الاستنباط من الكتاب والسنة واما الى الاختلاف في العلم بأن يتلقى الواحد منهم حديثا لم يصح عند الآخر — مع طول البحث وفرط الجهد — أولم يصل الى علمه أصلا . وقد يكون أحدهما ناسخا أو مطلقا ، والثاني منسوخا أو مقيدا مثلا ، ولا يقال ان أحدهما على الباطل بعد اذ علمت ما قلنا في هذا السبيل من ان المجتهد مكلف بما يؤديه اليه اجتهاده والا للزم الحرج وهو مدفوع على ان هذا ليس خاصا بالاجتهاد من السنة بل وعن الكتاب أيضا كما بينا

اما خبر (اذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافق فاقبلوه وان خالف فردوه) فخبر صحيح على اننا لو سلمنا صحته فلا يمكن ان يكون معناه اذا حدثت حديثا فخالف الكتاب فردوه فان الرسول معصوم باتفاق عن ان يحدث بما يخالف حكم الله في كتابه ، وكيف وهو فوق عصمته أبلغ الناس للكتاب حفظا ، وأعظمهم لآياته تدبرا ، وأكثرهم لها ذكرا ، فتعين المعنى اذا صح الخبر « اذا روي لكم عن حديث فاشتبه عليكم وجه الحق فيه فاعرضوه على كتاب الله فاذا خالف فردوه فانه ليس من مقولي » والله أعلم ، أما الوارد من الطريق الصحيح فقد عرفت مبلغ القول فيه ، وسواء صح هذا الخبر أو لم يصح فقد سقط الاستدلال به في هذا المقام ، وأيضا لو كان الامر كما رأيت من ان هذا الخبر دليل على كفاية القرآن والامر بعدم قبول شيء من السنة الا ما دل فقه منها نصا (طبعا) لكان كل ما جاءنا من السنة وهو بمجموعه متواتر لا شبهة فيه عبثا تصان عنه أفعال العقلاء ، فضلا عن الانبياء ، ما دام هو عين الذي نص عليه صريح الكتاب ، ولكان الاليق بمقام الرسول الكريم ان لا يحدث بحديث مطلقا حتى

ولا بهذا الحديث الذي أوردته على فرض صحته وكذلك خبره لو كان — أي الوضوء من القيء — واجبا لوجدته في كتاب الله فخبر صحيح أيضا ولو بما أثبت ظاهره بالمعنى الذي فهمته ما أسرعنا الى رده في الخبر المتقدم ولو صح ما عيينا بتفسيره على ما يوافق اجماع المسلمين على انه قد وردت السنة الصحيحة الصريحة في ذاك نكتفي منها الآن بخبر واحد معناه انه سألت سائلة ابن مسعود ومكانه من العلم والدين والثقة مكانه — اي امرأة أصل الشعر فهل يحل ذلك لي فقال لا يحل فقالت كيف وليس هـذا في كتاب الله فقال لو قرأت كتاب الله لوجدته فيه فقالت اني قرأت ما بين الدفتين فلم أجده قال ألم تقرأي (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فهـذا في كتاب الله فقالت بلى

الاجماع

وحجته من الكتاب العزيز أيضا قوله تعالى (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) (*) وليس هنالك من سبيل للمؤمنين غير ما اتفقوا عليـه من قضايا الدين ككون فرض الظهر أربعا والمغرب ثلاثا وكون نصاب الضأن أربعين والبقر ثلاثين ونحو ذلك، وأين وليت وجهك الى أي فريق شئت في تعريف هذا الاجماع وأهله فهو حجة عليك في كل المسائل التي خالفت اجماع المؤمنين قاطبة عليها

القياس

— أثبت القياس، فكفيتنا مؤونة اثباته غير انك انكرت السنة ومنكرها منكر القياس بطريق الاولى، على انا نثبتهما جميعاً

(المنار) لهذه المقالة تتمة عنوانها (العقل والدين) ويليها بقية الرد وقد نشرنا عبارته برمتها على طولها لنزاهتها واستيفائها المقصد

(*) نص الآية الكريمة « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين » الخ

باب التربية والتعليم

المكتوب العاشر (*)

من أراسم الى ولده

عن لوندرة في ١٥ فبراير سنة — ١٨٦٠

لا حق لك ياعزيزي «اميل» في أن تكون بلا رأي سياسي فإنما رجل يعيش في قوم و يظهر معتزلا لما يتعارض بينهم من المصالح غافلا عما يتقاسم عقولهم من المذاهب فهو غاية في الحقارة والخسة وكان حقه أن ينشأ بين المتوحشين بل المتوحشون يشتغلون بمصالح قبيلتهم بغيرة وحمية

نعم قد كان رؤساء الحكومات أكدوا للناس في الازمان الغابرة أنهم مرسلون من عند الله لسياستهم وتربيتهم [illegible] على هذا الغرض قد قصر على الطاعة المطلقة لأوامرهم [illegible] ملوك الارض ولا حق للارض في أن تثور على [illegible] في البلاد المهذبة بهدي العلم من أنصار هذا الحق الالهي الذي يزعمه الملوك الا النزر اليسير وقد قضى العقل على بعض المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ثم دل التاريخ على أن السلاطين كانوا يسقطون من عروشهم ولم تكن عناية الله تأخذ بالاحرى لنصرهم وانه كان من الميسور للامم كل اليسر أن يستغنوا عنهم(١)

(*) مترجم من كتاب أميل القرن التاسع عشر في التربية

(١) ما ادعاه الكاتب من تأكيد الملوك لرعاياهم انهم مرسلون من عند الله أمر ثابت في التاريخ بل قد بلغ الغلو بهذه الدعوى ببعضهم الى ادعاء الألوهية والصحيح المعروف لذوي العقول المطهرة من رجس مذهب الماديين انهم عبيد استخلفهم الله في الارض بمقتضى طبيعة أهلها لحفظ نظامهم فان أحسنوا الخلافة سعدوا وسعد بهم رعاياهم وان أساؤها شقوا وشقوا بهم «ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل

هذا السلطان المعصوم الذي لم يكد يبقى للانسان جراءة على ادعائه للاشخاص في وجه عبر التجربة الزاجرة لايزال يدعى للاوضاع البشرية فلا تكاد اي حكومة من الحكومات تستقرحتى تدعي أنها حلت محل المحكومين في أفكارهم وعزائمهم

ولا يخفى ان البلاد التي وضعت حكومتها على هذا النمط يكون من عادة شيوخ بيوتها لفرط حزمهم و بلوغهم فيه حد الجبن أن يعظوا شبانها بأن لا يشتغلوا بالسياسة

تسمع الاب منهم يقول لابنه: «يابني ان لك أن تغني وتتزوج وتجعل لنفسك في الناس ذكرا وليس من حقك الاشتغال بما وراء ذلك لوجود رجال عهد اليهم الحاكم بمحض ارادته أن يفصلوا في جميع المسائل ويوزعوا المثوبات والعقوبات على الناس فهم كما تقول التوراة أناس متحزبة التي تحرق أموال المعاندين للنظام المقرر كما تحرق السموم نبات المزارع فالأحزم لك أن تخلي بين الحكومة وعملها واذا كان لابد لك من رأي فلا أقل من أن تختار لنفسك مايلائمها من الآراء على شرط أن تقصره عليها لا [illegible] من الاشتغال بمصالح غيره» والعاقل من يتوق ادخال أصبعه بين الشجرة ولحائها(١)

وأما الامم الحرة فالامور فيها تجري على مايخالف ذلك كل المخالفة فلا يكاد طالب العلم فيها يملك اليسير من فصاحة المنطق حتى يمارس المناظرة في المصالح العامة وكل فرد من أفرادها اذا أراد أن يكون شريفا وجب عليه أن ينتمي الى حزب من الاحزاب وهم يبعدون كل البعد أن يعتقدوا ان في مجاهدات المعيشة

الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» وما يزعم من قضاء العقل على المذاهب السياسية المأخوذة من القوانين الالهية ليس صحيحا على اطلاقه فان القوانين الالهية المحفوظة من التحريف هي أس العدل والحرية واستشهاده بسقوط الملوك من عروشهم وعدم نصر الله لهم وسوء تعبيره عن ذلك لايدل الا على أنه جهل ان الله لاينصر الا من نصره باتباع اوامره وحسن السيرة في خلقه وانه تنزه ان يحتاج في النصرة الى الاستعانة بعدة أو سلاح

(١) المثل العربي «لاتدخل بين العصا ولحائها»

السياسية ضررا بالمعيشة البيتية بل هم يحملون الفضائل الخاصة على نسبة اتساعها وامتدادها في ميدان الفروض العامة ولو ان وجدان العدل كان قاصراً على المعاملات الخاصة لعد من الظلم في حق عامة الناس

اذا تقرر هذا قلت إن جميع الامم خلقت لتكون احراراً ومن العبث ان يزعم زاعم ان منها من هي مفرطة في الطيش وفيها من هي غالية في التحمس ومنها من هي غاية في الجهل ومنها من هي متنطعة في التأنق فقد نسي أن الوسيلة الى ترقية أخلاق الامم انما هي ترقية أوضاعها وقوانينها ولامراء في أن هذه الاوضاع المؤسسة على الحرية لن تنزل من السماء وانه من الحمق والجنون أن تنتظرها أمة من حكامها لان جميع الحكومات المستبدة مبنية على قاعدة ان الناس عاجزون عن سياسة أنفسهم فكيف يرضى الحكام حينئذ بان يكلوا أنفسهم التخلي عنها وقد يرخون زمامها أحيانا حذقا منهم في تصريفها وحزما ولكنهم يعرفون عند الحاجة كيف يرجحون تصريف [illegible] بجميع أنواعها مما يعطى ويوهب بل هي مما يغنم بالجهاد والمكافحة فشدة [illegible] العقول والعزائم وجملة اخلاص المخلصين الحامين وتصلب من لا يستخذون للذل من افراد الامة هي التي بضرورة الاحوال نفسها تكره غاصبي حق الحرية على ارجاعه الى اصحابه وورده الى أربابه وما يحصل من التدمير في أثناء الجهاد لايلبث أن يزول وما يعقبه من الرقي دائم لافناء له فان القاطع يبلى بعمله في المقطوع

ليس من قصدي مطلقاً أن أبعث في نفسك كراهة الامة التي خلقت للمعيشة فيها فأنت صاحب الحكم على أهل زمانك ولكن حذار من الاحتقار لغيرك والاستخفاف به فان عصرنا سيشتهر في التاريخ بخطوبه ومصائبه لاننا قد عملنا في الحكومات التي تعاقبت على البلاد وهي حكومة الاصلاح والحكومة المقيدة والجمهورية وحكومة نابوليون وليست العصور التي تعني وتؤلني هي التي تسعى فيها أمة عظيمة للحصول على الحرية من خلال الحوادث وانما هي التي تخلد فيها الى الدعة من غير أن تنال حريتها

ان لدائي من جيل بذل نفسه في سبيل الحرية وانا اشتهي بمجامع قلبي ان

يكون الناشئون أسعد منهم حظا وأوفر غبطة ولكن ينبغي لهم ان يستفيدوا من زلاتنا وتجاربنا

انا قد غلونا فيما رجوناه من تصاريف الزمان وكلما سألت نفسي عن سبب مصائبنا خانني أجده في عيوب تربيتنا السياسية فاشدنا بعداً عن الايمان يؤمن بالمعجزة ذلك أنه يعتقد في تغيير أحوال الامة بأمر من أوامر حاكم مطلق موقت الحكومة أو — على الأقل — أمر مجلس حاكم ولقد شهدت فرنسا غير مرة تلاشي بيوت حاكمة كانت تعتقد متانة دعائمها وزوال مقاصد لبعض الطامعين من رجالها الذين كانوا يدعون المستقبل لانفسهم ثم انها لما انتصرت انتصارها العقيم القصير المدة كان اشتغالها بتحرير نفسها واستخلاص مصايرها أقل بكثير من اشتغالها باختيار الرجال الذين القي اليهم لا تفاق زمام سياستها ثم ان شكل الحكومة واختيار الرجال الذين يصرفون زمامها ليس مما لا يعبأ به ولكن ينبغي ان تكون الامة هي المنشئة لحكومتها على اختلاف ضروبها في بعض زمن المستقبل فلن يرى بعد الآن لأي شكل حكومة مشخصية ولا لنا ناموساً قصورمة تمثل الله محياً بالنور والهدى فعلينا أن نخلص أنفسنا من خداع الناس ونطهرها من ربقة الاوهام لأن الامم لا تنال حريتها بالاتفاق ولا بسلطة غيبية فوق الطبيعة(١) ولا بالبحث فاذا نظر فرنسا في نفسها نجد أن نختم هو عزيمتها.

أنت حدث ومغترب عن بلادك فوسيلتك الى خدمتها هي أن تنفي عن عقلك الجهل والاوهام والاضاليل التي تبذر في الدنيا بذور العداة الغاشمين اذا فعلت ذلك كنت قد أديت في سعيك الى الحرية شيأ من العمل - التعلم الشمار بالشر لاستئصاله فلو لم يكن نظام تربيتنا برمته من شأنه تحرير أبناء الوطن من ملكة الاستقلال بالفكر والارادة لكانت فرنسا قد اهتدت الطريق الى الحرية من زمان بعيد فاما أن يكون هذا هو ينبوع ما أصابنا من ضروب المحن واما أن أكون مخطئاً خطأً فاحشا . لا حق لنا ان نعيب على الأتراك اعتقادهم بالقضاء والقدر فنحن

(١) انكار الكاتب تأثير السلطة الغيبية يعني الله جل شأنه في حرية الامم أثر من آثار المذهب المادي القائل بأن لا وجود لهذه السلطة نزه الله عقولنا من لوثه

أثبت منهم فيه ألف مرة ذلك أننا نابعون لبحث ومناخاضعون لمقدور سياستنا مو دون ميثاق الطاعة لحكومتنا حتى لو انتقلت الى أيدي الكفار وقد أصبح خمود الهمم وانحلال العزائم ملاذا يلوذ به أشدنا أنفة وإباء نزعم لما حل بهم من الكآبة وكسوف البال يحولون وجوههم عما يجري بين أيديهم من الامور كما لو كان لأي واحد من الناس أن يقنط من أهل زمانه ومن بلاده. اذا ظهر الشر والفساد في الامة كان حقا على الانسان ومن مقتضى عظمته أن يجاهد في ازالة سببه وليس يكفي الرجل الصالح افتخاره أحيانا بأن يتخيل في نفسه عالما آخر ماوي فيه معتقده ويشرف من أعاليه على أمور دهره فيحتقرها بل عليه أيضا أن لا يدخر سلاحا في مكافحة

ليست أمة من الامم من هذا العجز في شيء . فأنت تعرف كلمة جوفينال(١)

فكن خيرا منهم وأنور فكرا



ان مايشكو منه جميع الناس في أزمان التدلي من خمود النفوس وآفة التواكل وبله الاستسلام لضرورة الاحوال ... الناس ... أصنافا منهم الا شريك في الهلاك العام إما بسكوته وإما بامتناعه ... عن ... على أن تلك الازمان هي التي يأتي فيها للنفوس الأبية أن تشتد وتثبت في تيار الدمار فعلينا ان لم تأنس من نفوسنا كفاية في القوة أن نستمين من سبقت لهم الشهادة في سبيل الحق ومن ماتوا من الكتاب وهم يجاهدون الاستبداد ويطالبون عن البصائر قبل أن يجنوا ثمار كدهم ومن خروا من منابرهم من الخطباء مخضبين بدمائهم ومن حكم عليهم من العقلاء بشاق الاعمال وشكلوا خلال القرون الماضية في سلاسل العبودية المعنوية ولنتأمل في ماضينا فانا نجد فيه من السجون المظلمة والمشانق وأنواع العذاب والتنكيل مايشهد لنا بنزاهة مقصدنا نزاهة لاتدافع - ألا ان لواء الحرية يظل جميع المقاومين والمكروبين والمبغضين في سبيل تأدية مافرض عليهم وبهذا اللواء سيكون لنا الفوز والظفر وعلى هذا الاعتقاد أقبلاه قبلة الوداع اه

---

(١) جوفينال كاتب لاتيني هجائي شهير كان يعيش في آخر القرن الأول من الميلاد ومات في عهد الانطونيين بيت من بيوت الملا في روما)

آثار علمية أدبية

﴿حواء الجديد – أو – ايفون موتار﴾

ألف نقولا أفندي الحداد قصة صور فيها كيف يغوي الرجل المرأة حتى يتهك عرضها ثم يتركها فتقع في الشقاء وتضطر الى البغاء فيحتقرها الناس من دونه وهم ظالمون و بالغ في لوم الناس على ذلك حتى عذر القواجر أو كاد ووعد بكتابة قصص في المسائل الاجتماعية. وقد كتب الي كتابا أرسله مع نسخة من القصة قبل نشرها يقول فيه انه يرغب الوقوف على رأيي (علانا) في القصة وتأثيرها فيهم فأجبته بالكتاب الآتي

عزيزي الفاضل

رغبت الي أن أقرأ قصتك الجديدة « حواء الجديدة » وأكتب اليك برأيي فيها وأثرها في [illegible] بعد القراءة [illegible] في التصوير والتخيل. واعتصمت بعروة النزاهة والادب في [illegible] مبالغة في القصة. اما الموضوع الاجتماعي الذي نفخت فيها من روحه فليس طريفا عندي قرأت وسمعت فيه شيئا عن الافرنج وفكرت فيه كثيرا ولعل ما قرأته لك فيه خير من قليل ماعلمته منهم وأبشرك بمستقبل حسن في خدمة أدب النفس والاجتماع بما توجهت اليه من وضع مثال لهذه القصة في غايتها دون خصوص موضوعها

كل بغي شقية في هذه الحياة قبل الحياة الآخرة ولكن يعز أن يوجد في بلادنا بغي طامن مكارم الاخلاق وشرف النفس وجودة الذهن بعض ماروبت عن «ايفون موتار» ويوشك أن يوجد لها ند في بلاد الافرنج لمكان التربية الدينية والادبية عندهم كما وصفت من تربيتها فاكثرهن – ان لم نقل كلهن – قوارير أقذار، وقرارات وقاحة وصغار، لابد من تصغير جرائرهن، وعطف القلوب عليهن، الاجذب من بقي عندنا سليم الفطرة اليهن ، أقول هذا وأنا على تعجبي من فساد فطرة من يستطيع الدنو منهن ممن يحزن لشقائهن ويصدق أن أكثرهن مكرهات على الفجور كارهات للبغاء لو وجدن مخرجا منه لهرعن اليه حتى انه سبق لي بحث مع بعض أهل

الفضل في وجوب السعي لانشاء ملجأ يؤوي من يريد التوبة منهن ويغنيهن عن طلب الرزق بأعراضهن ولو وجد من يسعى الآن في مثل هذا لكان يكون للاعتذار عنهن والاستعطاف عليهن فائدة

لك أن تصف من شقائهن بما شئت من اسهاب، لتنذر المعرّضات لمثل فعلهن أن يتدهورن في هاويتهن، ولك أن تصف من فساد الفاسقين وتشوه من سيرتهم بما استطعت من إطناب، لتنفر عن مثل عملهم، وتحذر الفتاة الغرّ من تغريرهم، فتكون على بصيرة من عاقبة فجورهم، وما يتوسلون به من بهتانهم وزورهم، وليس لك في رأيي أن تجعل ما تكتب منظارا يكبر مخازي الفساق من جهة ليصغر فضائح الفواسق من الجهة الأخرى

اذا انتقدت عليك تصغير فاحشة المسافحات في مقابلة تكبير فاحشة المسافحين مرة فاني أنتقد الاحتجاج على تصغيرها بشيوع الفاحشة في ربات البيوت ذوات البعول سبعين مرة الا انه ذنب ... أشد ضررا من ذنب ذوات الاخدان بل لان إظهار ذلك وبيان أن الناس يستحلون مع ذوات الاخدان وهم يعلمون بخياناتهن لازواجهن يضر نشره في قصص يقرأها النساء من العذارى والايامى اذ لا تتصور التي تلين للفاسق أن يذل عرضها يفضي الى أن تكون بغيا مسافحة وانما يغلب على ظنها أنها تصادف زوجا يستر فضيحتها بغفلته، أو قلة غيرته

قرأت ما كتبت ايفون عن خداع ذلك الشرير لها وعن اجتهادها في استرداد شرفها بالسيرة الحسنة وعن عجزها واعواز ما تروم فتمنيت لو تقرأ ذلك العذارى اللواتي أصبحن عرضة لمثل ذلك البذل لاعراضهن باطلاق أهليهن العنان لهن مع كثرة ما يحول الفساق من مخادعتهن، وقرأت كتبت أنت من شيوع الفاحشة في ربات البيوت واغضاء الناس عنهن فتمنيت لو لم تطلع عليه قارئة لاسيما اذا كانت عذراء

هذا ما كان من أثر القصة في نفسي استحسان لما عدا الامرين المنتقدين من ناحية ما تتقدر من تأثيرها وأرى أن تتوخى فيما تكتب الماية والفائدة أكثر مما تتوخى من حسن الوضع ولطف التعبير وقوة التأثير وأجدر بمن يعرض عمله لنقد الرجال أن يبلغ منه غاية الكمال

التعليم والارشاد

كتاب جديد « تأليف السيد محمد بدر الدين الحلبي . القسم الأول منه في التعليم وفيه الكلام على العلوم والمؤلفات وبيان الجيد منها من غيره وشرح أسباب انحطاط العلوم الشرعية وذكر الطرق النافعة في التعليم »

هذا ما كتب على ظهر الكتاب ونقول أما المؤلف فهو من أذكياء المجاورين في الأزهر وقد اشتغل بتصحيح كثير من الكتب التي طبعت حديثا وفيها كثير من مصنفات المصلح العظيم شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ووارث علومه ابن القيم وبعض كتب الأدب النفيسة فاستفاد بذلك وبالاسفار وقراءة الصحف ما امتاز به على كثير من أقرانه وحرك همته للبحث في الكتب النافعة والتعليم. وأما الكتاب فقد عرف من اسمه وما كتب عليه من بيان موضوعه وهو من أهم الموضوعات لهذه الأمة التي لا ترجى لها الحياة الطيبة إلا باصلاح التعليم والارشاد وقد اهدى المؤلف كتابه الى [illegible] فشكرا له [illegible] وشكرا له على هديته. ومن الشكر ان بادرنا الى التنويه به قبل مطالعته كله وقدمناه على مطبوعات كثيرة أهديت الينا من قبل

قرأنا من الكتاب جملا متفرقة من فصوله فعرفنا منه وأنكرنا عرفنا منه مسائل كثيرة جاء بعضها مؤيدا لما ندعو اليه منذ أنشئ المنار كبيان سوء طريقة التعليم في مثل الازهر وما اختير لها من الكتب وأنكرنا منه مسائل كثيرة واختلافا كثيرا منه ماهو من قبيل الرأي ومنه ماهو من قبيل الحكاية والنقل . وفائدته الاجمالية تأييد ما كتب كثيرا الآن في الشكوى بالكتب التي تدرس في المدارس الدينية ومدرسيها وهذا تمهيد للاصلاح سبق اليه كثيرون من المصلحين ومقلديهم . وحسبنا هذا التنبيه على فائدته الآن ونرجيء بيان ما أنكرنا منه وما ننتقد به عليه الى ان يتاح لنا مطالعته كله بالتدقيق وعسى ان يبادر بعض من اطلع عليه من المدققين الى انتقاده عناية بهذا الموضوع ومسابقة للأغرار الذين يحكمون على الاشياء بادي الرأي فيظلمونها و يظلمون الناس ويغشونهم وهم لا يشعرون

باب الاخبار والآراء

﴿ تعيين سعد باشا زغلول ناظراً للمعارف ﴾

رأى اللورد كرومر أن يعين هذا النابغة ناظراً للمعارف العمومية فصدر الامر العالي بذلك فاتفقت الجرائد الوطنية والاجنبية في البلاد على استحسان هذا التعيين ووصف الناظر الجديد بالعرفان واستقلال الفكر وقوة الارادة والاستقامة وهي صفات الكمال في الرجال . وكان ينبغي ان يتفقوا على شكر اللورد كرومر ولكن الذين جعلوا من مذهبهم ذم المحتلين على كل عمل وإن كان نافعاً في نفسه وفي عرفهم قد ذموا نية اللورد في هذا التعيين وما ذموا الا النية التي اخترعوها له وانتقل بعضهم بسبب الثناء على الناظر الجديد الى القدح بسائر النظار تصريحاً أو تلويحاً وما كان ذلك من الذوق في شيء . وقال أشدهم إسرافاً انه لا خير في هذا التعيين الا اذا جعل الناظر الجديد آمراً والمستشار الانكليزي مأموراً ولفظ المستشار يمنع ان يكون مسماه عبداً مأموراً وان لم يكن من دولة محتلة بقوتها في بلاد يسلها ضعفها وجهلها . فدع كلام المسرفين . وانكر هذا العمل لادارة الجريدة [illegible] فانكر مدعاة المزيد من الاحسان عند كل إنسان وعاقل وكتب ما يؤيده حتى في جريدة التيمس انه في تعيين سعد باشا ناظراً للمعارف قصداً الى ترضية حزب المرحوم الشيخ محمد عبده الذي مدحه اللورد في تقريره بالاعتدال وقالت إحدى الجرائد الانكليزية انه ان كانت الارواح تشعر بما يكون في الدنيا فان روح الشيخ محمد عبده لمسرورة الآن بتعيين [illegible] ناظر المعارف . وقد صدق صاحب القول وسعد باشا جدير بخدمة المعارف واسعاد أهل الاعتدال والاستقامة من مريدي أستاذه وأستاذهم الامام جعله الله خير خلف له في عمله للبلاد وخدمته واستقلاله وحكمته !

﴿ الجامع الازهر — مشيخته وإدارته ﴾

ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا عن استقالة شيخ الازهر وعزم الأمير على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيلا للازهر تمهيداً لجعله أصيلا وقد تحقق ذلك ولكن استقالة شيخ الأزهر حفظت وحمل على طلب إجازة ثلاثة أشهر وعين الشيخ محمد شاكر وكيلا لمشيخة الازهر فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا مرؤسين له على حداثته في السن والعلم وانتهى الامر الى الحكومة أو الى أولي الامر فخاطبوا الامير في ذلك وتقرر ان الشيخ شاكراً لا يكون شيخاً للازهر ولا وكيلا وقد سمي الآن نائباً وقد زاد الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته على امداد الامير إياه بنفوذه ويتوقع ان ينتهي هذا التلاعب في الازهر بجعله تحت مراقبة نظارة المعارف اذ لا قرار الا مع السلطة الثابتة المنتظمة . ولعلنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر